جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني

محاضرات

ألقاها

دكتور محمد أنيس
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٦٢

دار الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون: ٤١٢٩٦

إهداء

إلى فقيد التاريخ العربى الحديث أستاذنا محمد شفيق غربال

المؤلف

تاريخ مصر فى العصر العثمانى من الفترات التاريخية التى لم يهتم المؤرخون بها اهتماما كافيا لا فى مصر ولا فى الدوائر العلمية فى الغرب . ولم يبدأ هذا الاهتمام بشكل جدى إلا فى السنوات الأخيرة . ففى الغرب خرج الاهتمام من انجلترا ومن مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية فى لندن ، فقد كتب الأستاذان Gibb,Bowen كتابهما (المجتمع الإسلامى فى القرن الثامن عشر) عام ١٩٥٠. ولا أعلم ماإذا كان هذا العمل سيكمل بعد وفاة بوين . على أن الإهتمام بتاريخ مصر العثمانية استمر فى مدرسة الدراسات الشرقية ، فقد كتب P. Holt مقالين فى مجلة هذه المدرسة لعامى ١٩٥٩و ١٩٦١ : الأولى عن وثيقة رضوان بك وأصل المماليك الجراكسة والثانية عن (الباكوية فى مصر العثمانية فى القرن السابع عشر) ، كما كتب دافيد ايالون D . Ayalon فى نفس المجلة ١٩٦١ بحثه عن عبد الرحمن الجبرتى .

ويبدو أن الاهتمام بهذه الحقبة التاريخية قد بدأ يظهر فى الدراسة الجامعية الأمريكية أيضا ، فقد نشر ستانفورد شو S . show رسالته عن (التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية)١٩٦٢ .

ولعل السبب فى إهمال هذه الحقبة التاريخية لهذه الفترة الطويلة أن التطورات السريعة التى نزلت بمصر منذ مطلع القرن التاسع عشر بعد اتصال مصر بالغرب والحضارة الغربية والاستعمار الغربى جعل الدراسات التاريخية عن مصر تتركز حول القرن التاسع عشر .

وقد نحت الدراسات التاريخية فى مصر نفسها هذا النحو ، فالحركة التاريخية النشطة التى شاهدتها مصر فى أواخر العشرينات وفى الثلاثينات كان يقوم بها مؤرخون أجانب ويرعاها القصر . ولما كانت هذه الحركة قد قصد بها كتابة تاريخ مصر دفاعا عن سلوك وسياسة أسرة محمد على ، لذلك لم تهتم بفترة الحكم العثمانى . ومع ذلك فحين تولى المصريون زمام هذه الحركة التاريخية، شاهدت المكتبة التاريخية اهتماما واضحا بالعصر العثمانى .

فقد نشر الأستاذ محمد شفيق غربال فى عام ١٩٣٦ مخطوط (مصر عند مفرق الطرق — رسالة حسين أفندى الروزنامجى) — وفى هذه الفترة أيضا قدم الأستاذ محمد محمد توفيق رسالته عن (خط القرمة) وهو أحد الخطوط التى كانت تكتب بها حسابات المالية والأوامر الإدارية فى العصر العثمانى، كذلك كتب محمد رفعت رمضان رسالته للماجستير عن (على بك الكبير). ولكن بصرف النظر عن هذه المحاولات لم تستكمل دراسة تاريخ مصر العثمانى فى مصر.

ماهى أهم مصادر تاريخ مصر العثمانية المعاصرة.

نستطيع أن نقسم هذه المصادر المعاصرة إلى أنواع ثلاثة: أولا — الوثائق الرسمية. وهذه الوثائق منها المصرى والتركى والأوربى. أما الوثائق المصرية فهى إما بدار المحفوظات بالقلعة أو فى دفاتر المحكمة الشرعية أو وزارة الأوقاف المصرية — وفى مقال للأستاذ ستانفورد شو فى مجلة معهد المخطوطات التابعة للجامعة العربية(١) عرض المؤلف للوثائق العثمانية الموجودة بدار المحفوظات بالقلعة وفى دفتر خانة المحكمة الشرعية. وخلاصة المقال أنه بينما تشتمل دار المحفوظات على وثائق ذات أهمية كبرى من الناحيتين المالية والإدارية، تتركز أهمية وثائق المحكمة الشرعية ووزارة الأوقاف فى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية(٢).

أما بالنسبة للأرشيف التركى فالمعلومات التى لدينا مستمدة من مقال شو السابق الذكر. ويتضح منه أن الجهود التى بذلت فى تركيا لجمع المحفوظات وترتيبها فى العشر سنوات الأخيرة قد أسفرت عن معلومات كثيرة وهامة فيما يتعلق بالشام والعراق وأن ما وجد متعلقا بمصر قليل. ويبدو من هذه الدراسة التى قام بها شو فى الأرشيف التركى أن مركز الثقل فى وثائق العصر العثمانى بمصر

(١) المجلد الثانى — الجزء الأول — مايو ١٩٥٦.

(٢) راجع مقال الدكتور محمد أنيس (حقائق جديدة عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية) المجلة التاريخية لسنة ١٩٦٢ ص ١٤٦ وما بعدها.

موجود فى دار المحفوظات بالقاهرة. وقد حان الوقت لأن تهتم الدوائر العلمية بهذه الوثائق وأن تعد الطلاب أعدادا كافيا لدراسة وثائق دار المحفوظات المتعلقة بالعصر العثمانى.

وأما الأرشيف الأوربى فى الخارج فهو غنى ايضا بما يتعلق بتاريخ مصر فى العهد العثمانى ونخص بالذات أرشيف البندقية ومرسيليا ولندن — والارشيف فى هذه المدن الثلاث يتناول بصفة رئيسية نشاط الدول الأجنبية السياسى والتجارى فى ذلك الوقت وإن كانت تحتوى كذلك على وثائق خاصة بالأحوال الداخلية فى مصر — وقد درس شارل رو Cbarles — Roux الأرشيف الفرنسى وأخرج كتابه les echelles Francais de Levant كما درس الأرشيف الانجليزى واخرج كتابه L'Angleterre et l'isme du Canal de Suez

كذلك قدر لكاتب هذه السطور أن يدرس الأرشيف الانجليزى فى العصر العثمانى وأن يخرج من هذه الدراسة ببحث The development of British interest in Egypt in the late18 thCentury

أما أرشيف البندقية فمع أنه اغنى الأرشيفات الأوربية فيما يتعلق بهذا الموضوع، إلا أنه لم يكن، فيما نعلم موضع دراسة علمية حتى الآن (١).

ثانياً — الكتاب المعاصرون — من هؤلاء مجموعة الرحالة الاجانب الذين زاروا مصر خلال العصر العثمانى وكتبوا عن أحوالها. فى مقدمة هؤلاء مجموعة الدراسات التى كتبها علماء الحملة الفرنسية فى مؤلفهم الكبير (وصف مصر) وهذا المؤلف رغم خطورته لا يصور أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية تصويرا دقيقا إلا فى الفترة السابقة للأحتلال الفرنسى مباشرة.

وبالنسبة للرحالة الفرنسيين جمعهم الاستاذ M. Carré فى دراسة تحت عنوان:

(١) نعلم أن الدكتور توفيق اسكندر أستاذ الوثائق والمكتبات بجامعة القاهرة ومدير دار الوثائق بعابدين قد درس ارشيف البندقية وصور منه الكثير مما يتعلق بمصر ويقوم الآن بدراسة ما صوره من هذه الوثائق.

راجع مقال الدكتور محمد أنيس (مصر عند منحنى القرن الثامن عشر. مصادره ووثائقه التاريخية) المجلة التاريخية ١٩٥٠.

Les Voyageurs et ecrivains Francaises en Egypte وهذه الدراسة تتناول الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر وما قبله وإن كان يكاد يقتصر فى دراسته على الفترة السابقة للقرن التاسع عشر على عدد محدود من هؤلاء الرحالة. أما Clement فقد عنى بدراسة الرحالة الفرنسيين فى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وذلك فى كتابه Les Francais d'Egypte au XVI et XVII siecies ولذلك تعتبر دراسة كلمنت مكملة لما فعله كاريه .

أما بالنسبة للرحالة الإنجليز فلم تظهر دراسة كاملة لهم فى العهد العثمانى وإن كان كاتب هذه السطور قد حاول دراسة مجموعة منهم من الذين زاروا مصر فى النصف الثامن من القرن الثامن عشر (١) .

ويلاحظ حول هذا النوع من المصادر بالذات رغم أهميته أنه يجب يؤخذ بحذر شديد. فالأوربيون بسبب الأوضاع العامة فى مصر فى العصر العثمانى لم يتمكنوا من التغلغل فى الحياة المصرية ودراستها دراسة وافية . وأهمية كتب الرحالة كمصدر أساسى فى تاريخ مصر لم تبدأ إلا بالقرن التاسع عشر بكتاب E.W. lane [عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم] .

والنوع الثانى من كتابات المعاصرين للعصر العثمانى ما كتبه المصريون أنفسهم . وهذه المراجع ذات أهمية كبرى فى عملية بناء التاريخ العثمانى لأنها تصور الأوضاع من الزاوية المصرية وهى المراجع التى تعالج تاريخ هذه الفترة بطريقة مباشرة ولذلك تبدو أهمية حصر هذه المصادر وجمعها ونشرها من أهم الخطوات التى يمكن أن تخدم تاريخ مصر فى العصر العثمانى .

أسباب تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى :

نلحظ حول المراجع التاريخية المصرية المعاصرة للعهد العثمانى : أولا أن أغلبها لم ير النور بعد ، فهى لازالت مخطوطة ومبعثرة فى المكتبات الشرقية والأوربية والمرجع فى حصر هذه المخطوطات كتاب بروكلمان [تاريخ

(1) M. Anis. British travellers, imepressions on Egypt in the late 18 th century. Bulletin of the Faculty of arts. Cairo University dec 1951.

الأدب العربى] وإن كان بروكلمان قد فاته ذكر بعض هذه المخطوطات (١). والسبب فى بقاء أغلب هذه المراجع مخطوطة ما سبق أن ذكرناه من إهمال المؤرخين لهذه الفترة التاريخية .

ثانيا — رغم الحقيقة السابقة فالمصادر التاريخية المعاصرة قليلة إذا قورنت بالعصر المملوكى مما يؤكد تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى — فما هى الأسباب التى أدت إلى هذا التدهور : —

١ — فى مقدمة هذه الأسباب تسرب الكتب التاريخية من مصر . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى الذى ينتمى إلى أواخر العصر العثمانى يؤكد هذا السبب (٢) . فبعد أن عدد كتب التاريخ التى يعرفها يقول [وهذه صارت أسماء من غير مسميات . فإنا لم نر من ذلك كله إلا بعض اجزاء مدشته بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدى الصحافيين وباعها القومة والمباشرون ونقلت إلى بلاد المغرب (٣) والسودان] .

٢ — كذلك أدت كثرة الفتن فى العصر العثمانى والنزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية الى إتلاف الكثير من المكتبات ، وفى ذلك يقول الجبرتى عند حديثه عن تدهور التاريخ فى عصره [ثم ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب وأخذ الفرنسيس ما وجدوا إلى بلادهم . ولما عزمت على جمع ما كنت سودته وأردت أن أصله بشىء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلفة التهذيب والترتيب وقد اعتراها النقص فى مواضع من خلال بعض الوقائع . وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ولكنه على نسق فى الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبى عبد الغنى مبتدئا فيه

(١) على سبيل المثال مخطوط عبد الغنى شلبى . لم يذكرها مابروكلمان وهى فى مكتبة جامعة ييل بأمريكا .

(٢) عجائب الآثار ج ١ ص ٦ .

(٣) يلاحظ مما ورد فى بروكلمان وفهرس مخطوطات جامعة الدولة العربية أن عددا كبيرا من مخطوطات هذا البلد موجود بمكتبة الجزائر .

Les Voyageurs et ecrivains Francaises en Egypte وهذه الدراسة تتناول الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر وما قبله وإن كان يكاد يقتصر فى دراسته على الفترة السابقة للقرن التاسع عشر على عدد محدود من هؤلاء الرحالة. أما Clement فقد عنى بدراسة الرحالة الفرنسيين فى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وذلك فى كتابه Les Francais d'Egypte au XVI et XVII siecies ولذلك تعتبر دراسة كلمنت مكملة لما فعله كاريه .

أما بالنسبة للرحالة الإنجليز فلم تظهر دراسة كاملة لهم فى العهد العثمانى وإن كان كاتب هذه السطور قد حاول دراسة مجموعة منهم من الذين زاروا مصر فى النصف الثامن من القرن الثامن عشر (١) .

ويلاحظ حول هذا النوع من المصادر بالذات رغم أهميته أنه يجب يؤخذ بحذر شديد. فالأوربيون بسبب الأوضاع العامة فى مصر فى العصر العثمانى لم يتمكنوا من التغلغل فى الحياة المصرية ودراستها دراسة وافية . وأهمية كتب الرحالة كمصدر أساسى فى تاريخ مصر لم تبدأ إلا بالقرن التاسع عشر بكتاب E.W. lane [عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم] .

والنوع الثانى من كتابات المعاصرين للعصر العثمانى ما كتبه المصريون أنفسهم . وهذه المراجع ذات أهمية كبرى فى عملية بناء التاريخ العثمانى لأنها تصور الأوضاع من الزاوية المصرية وهى المراجع التى تعالج تاريخ هذه الفترة بطريقة مباشرة ولذلك تبدو أهمية حصر هذه المصادر وجمعها ونشرها من أهم الخطوات التى يمكن أن تخدم تاريخ مصر فى العصر العثمانى .

أسباب تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى :

نلحظ حول المراجع التاريخية المصرية المعاصرة للعهد العثمانى : أولا أن أغلبها لم ير النور بعد ، فهى لازالت مخطوطة ومبعثرة فى المكتبات الشرقية والأوربية والمرجع فى حصر هذه المخطوطات كتاب بروكلمان [تاريخ

(1) M. Anis. British travellers, imepressions on Egypt in the late 18 th century. Bulletin of the Faculty of arts. Cairo University dec 1951.

الأدب العربى] وإن كان بروكلمان قد فاته ذكر بعض هذه المخطوطات (١). والسبب فى بقاء أغلب هذه المراجع مخطوطة ما سبق أن ذكرناه من إهمال المؤرخين لهذه الفترة التاريخية .

ثانيا — رغم الحقيقة السابقة فالمصادر التاريخية المعاصرة قليلة إذا قورنت بالعصر المملوكى مما يؤكد تدهور علم التاريخ فى العصر العثمانى — فما هى الأسباب التى أدت إلى هذا التدهور : —

١ — فى مقدمة هذه الأسباب تسرب الكتب التاريخية من مصر . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى الذى ينتمى إلى أواخر العصر العثمانى يؤكد هذا السبب (٢) . فبعد أن عدد كتب التاريخ التى يعرفها يقول [وهذه صارت أسماء من غير مسميات . فإنا لم نر من ذلك كله إلا بعض اجزاء مدشته بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدى الصحافيين وباعها القوءة والمباشرون ونقلت إلى بلاد المغرب (٣) والسودان] .

٢ — كذلك أدت كثرة الفتن فى العصر العثمانى والنزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية الى إتلاف الكثير من المكتبات ، وفى ذلك يقول الجبرتى عند حديثه عن تدهور التاريخ فى عصره [ثم ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب وأخذ الفرنسيس ما وجدوا إلى بلادهم . ولما عزمت على جمع ما كنت سودته وأردت أن أصله بشىء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلفة التهذيب والترتيب وقد اعتراها النقص فى مواضع من خلال بعض الوقائع . وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ولكنه على نسق فى الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبى عبد الغنى مبتدئا فيه

(١) على سبيل المثال مخطوط عبد الغنى شلبى . لم يذكرها بروكلمان وهى فى مكتبة جامعة ييل بأمريكا .

(٢) عجائب الآثار حـ ١ ص ٦ .

(٣) يلاحظ مما ورد فى بروكلمان وفهرس مخطوطات جامعة الدولة العربية أن عددا كبيرا من مخطوطات هذا البلد موجود بمكتبة الجزائر .

من وقت تملك بنى عثمانى للديار المصرية وينتهى كغيره ممن ذكرناه إلى خمسين ومائة وألف هجرية . ثم أن ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم ووقع فى صندوق العدم ومن ذلك الوقت إلى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد ولم يسطر فى هذا الشأن شيئا يفيد فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على حجار ترب المقبورين) .

والحقيقة أن الجبرتى أخطأ فى أعتقاده فى أنه ليس هناك تاريخ ما بين أحمد عبد الغنى شلبى أى من ١١٥٠ ﻫ حتى عصر الجبرتى نفسه ، ومع ذلك فاضطرار الجبرتى إلى الاعتماد على دفاتر الكتبة والمباشرين إلى غير ذلك دليل على ندرة المراجع التاريخية أو اختفائها فى عصره .

٣ — يشير الجبرتى فى موضع آخر إلى سبب ثالث لتدهور علم التاريخ (١) فى ذلك الوقت وهو عدم اهتمام العصر بكتابة ودراسة التاريخ ونظرتهم الهابطة إلى هذا النوع من المعرفة . قال [ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنسانى تعتنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا من بعد خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين ولعمرى أنهم لمعذورون وبالأهم مشتغلون ولايرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه هذه المنقبة . فإن الزمان قد انعكست أحواله وانخرمت قواعده فى الحساب فلا تضبط وقائعه فى دفتر ولا كتاب واشغال الوقت فى غير فائدة ضياع وما مضى وفات ليس له استرجاع إلا أن يكون من مثل الحقير منزويا فى زوايا الخمول والإهمال منجمعا عما شغلوا به من الأشغال فيشغل نفسه فى أوقات من خلواته ويسلى وحدته بين سيئات الدهر وحسناته] ولم يكن الجبرتى وحده يشكو من من ذلك . فهناك مؤرخ فى الشام وهو المرادى صاحب كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر كان يشكو من ظاهرة تدهور علم التاريخ فيقول

(١) حـ ١ ص ٤

عند زيارة له للآستانة [ثم جرى ذكر التاريخ وفقدانه فى هذا الوقت وعدم الرغبة إليه من أبناء الدهر مع أنه المادة العظمى فى الفنون كلها] (١) .

٤ — غير أن هناك سببا آخرا وهو أن تدهور التاريخ كان يعكس فى الحقيقة تدهورا عاما فى الحياة العلمية ولاسيما فيما يسمى بالعلوم العقلية . ويجرنا هذا الموضوع إلى أن نعرض سريعا لخصائص الحياة العلمية فى العصر العثمانى .

كان الحكم العثمانى يقوم فى مصر — وفى أغلب الولايات — على قاعدة بقاء الأوضاع بصفة إجمالية على ما كانت عليه قبل الفتح العثمانى لذلك ورثت مصر العثمانية أغلب مظاهر الحياة من العصر السابق لدخول العثمانيين سواء فى نظم الحكم الإدارية أو المالية أو فى تركيب المجتمع نفسه : فالحكم العثمانى حكم اقطاعى ضعيف لم يحدث تغييرا جذريا فى حياة المجتمع المصرى رغم بقائه مايقرب من ثلاثة قرون . هذه الحقيقة إلى جانب العزلة التى فرضت على المجتمع المصرى سواء من قبل العثمانيين أو بسبب تحول طرق التجارة العالمية عن الشرق الأوسط إلى الطريق حول افريقية ، كل هذا جعل من مصر — بل من منطقة الشرق العربى عامة — منطقة راكدة لم تتأثر بالتيارات الحضارية التى كانت تجتاح أوروبا من عصر النهضة الإيطالية حتى الثورة الفرنسية .

وإذا كان الحكم العثمانى بطريق مباشر أو غير مباشر ، بفعل العثمانيين أو بسبب الظروف الدولية التى أحاطت بالفتح العثمانى لمصر قد أدى إلى تدهور مصر سياسيا واقتصاديا فإلى أى حد أثر هذا الفتح فى الحياة الفكرية والعلمية فى مصر؟ الحقيقة أن التأثير العثمانى فى هذا المجال ضعيف لا يكاد يذكر . والسبب الرئيسى لذلك ماذكرناه من شكل الحكم العثمانى؛ فالدولة العثمانية كدولة اقطاعية من نوع معين كانت ترى أن وظائف الدولة تنحصر فى حدود معينة كجمع الضرائب والدفاع عن البلاد والمحافظة على الامن فى الداخل . وما عدا ذلك مايدخل فى مفهومنا الحديث

(١) عجائب الآثار حـ ٢ ص ٢٥ .

لاخص خصائص الدولة كالإشراف على الحياة الاقتصادية والتعليمية والصحية لم يكن له وجود فى تقدير الدولة ، لذلك احتفظ المجتمع بتركيبه السابق على الفتح العثمانى ، مجتمع سمته الأساسية الطائفية ، فهو مقسم إلى طوائف تقوم كل طائفة برعاية مصالحها فيما بينها وبذلك أرتفعت يد الدولة عن الجماعات المشكلة للمجتمع وتحددت العلاقة بين هذه الطوائف والدولة فى حدود ضيقة للغاية — وهكذا استطاعت المؤسسات العلمية أن تعمل بعيدة عن الدولة ، فلم تتأثر أو قل تأثرت قليلا بالتدهور السياسى والاقتصادى الذى اجتاح العصر العثمانى .

وقد ساعد على سلبية الحكم العثمانى فى المجتمعات العلمية أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضارى ليقدموه للحياة العلمية فى مصر — فلم يتعلم المصريون اللغة التركية ولم يدخلوا اللغة التركية فى الكتاتيب ، وأما التعليم فى الأزهر والمدارس التابعة له فقد كان من الطبيعى أن تكون دراسة الفقه والحديث مستندة على مصادرها الأصلية العربية — حقيقة أن الأتراك عملوا فى نطاق الشرق العربى على دعم السنة وتقوية هذا المذهب ومحاربة التيارات الشيعية ، ولكن هذا الموقف كان له شأنه فى التوازن بين الشيعة والسنة فى العراق أو الشام ولم يتأثر المجتمع المصرى بهذه السياسة لأنه كان بعيداً عن هذا التطاحن المذهبى الدينى . وحقيقة أن الاتراك عملوا كذلك على رفع شأن المذهب الحنفى ، على أنه لا يجوز المبالغة فى هذا الأمر أيضاً ، فقد احترم الأتراك المذهب الشافعى ، وهو المذهب الغالب فى مصر فى ذلك الوقت ، فمنصب مشيخة الأزهر طوال العهد العثمانى ظلت فى الشافعية .

طبيعة الحكم العثمانى اللامركزى ، وطبيعة تكوين المجتمع المصرى فى العهد العثمانى من أهم الأسباب التى ساعدت على بقاء الحياة العلمية والمؤسسات العلمية بصفة إجمالية كما كانت فى العصر السابق للعثمانيين — وثمة سبب آخر على جانب كبير من الأهمية فى هذا الوقت ألا وهو بقاء نظام الأوقاف المحبوسة على معاهد التعليم والعلماء .

لكل هذه الأسباب ظل المجتمع المصرى فى العهد العثمانى يحتفظ بالكثير من التقاليد الأخلاقية والعلمية . فى مقدمة هذه التقاليد نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية والمملوكية وأقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء من رصد أوقاف معينة على بعض المعاهد وحضور الكثير من الأمراء والمماليك دروس العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر ، كما شارك البكوات المماليك الأثرياء من المصريين فى هذا المضمار . كذلك كان السلطان العثمانى يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من الضربخانة . وكان يجارى السلطان العثمانى فى ذلك سلطان المغرب ولاسيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر . ومن هذه التقاليد الإسلامية العلمية السعى فى سبيل الحصول على العلم ، فالعالم الحق هو الذى يقضى حياته كلها يتلقى العالم من غيره فى مثابرة وجد وبدافع حب العلم لذاته . فمن الحقائق المعروفة أن غالبية العلماء فى ذلك العصر لم يكونوا يعيشون على دخلهم من العلم باستثناء أساتذة الأروقة فى الأزهر ، بل كان أغلب العلماء يشتغلون بحرفة يكتسبون منها — وكان العالم يتجشم الصعاب والسفر فى طلب العلم لذلك كانت العلاقات وثيقة بين العلماء العرب ، وتاريخ الجبرتى حافل بتراجم لعلماء من مختلف أنحاء العالم العربى من الذين استقروا فى مصر وإن كانت ظاهرة الترحال فى سبيل العلم اكثر شيوعا بين علماء الشام — وكان من عادة العلماء فى ذلك العصر أنه إذا سافر أحد العلماء فإنه ينزل فى منزل زميل له أو بإحدى المدارس التى يدرس بها هذا الزميل . كذلك كان من عادات هذا العهد التصاق الطالب بأستاذه فيلازمه ملازمة كلية أو كما كانوا يقولون (لازمه حسا ومعنى) . وقد أشار الجبرتى إلى والده الشيخ حسن الجبرتى ، الذى يمكن اتخاذه نموذجا للحياة العلمية فى هذا العصر ، فقال (وإذا أتاه طالب فرح به وأقبل عليه ورغبه وأكرمه خصوصاً إذ كان غريباً وربما دعاه للمجاورة عنده وصار من جملة عياله — ومنهم من أقام عشرين عاما قياما ونياما لا يتكلف إلى شىء من أمر معاشه حتى غسيل ثيابه من غير تعب ولا ضجر) . هذه الروح المتفانية فى العلم كانت جانبا من التقاليد الإسلامية التى

عرفتها المجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى وبقيت فى العصر العثمانى وكان يدفع إليها بطبيعة الحال أن العلم فى ذلك الوقت كان دينيا بصفة أساسية؛ فتشجيع العلم والثقافة مظهر من مظاهر التقوى والورع. لهذا يمكن القول بأن الحياة العلمية لم تمتد إليها يد التلف كما امتدت إلى الحياة السياسية والإقتصادية، والعلم كان يؤدى وظيفة اجتماعية فى المحافظة على كيان المجتمع الإسلامى فى مصر من التدهور الذى تعرض له المجتمع.

والأمر الواضح أن هذه الحياة العلمية لم يكن انكماشها وتضاؤلها بالقياس إلى عدد المدارس والمدرسين والأوقاف المحبوسة على المؤسسات العلمية ولكن بسبب تدهور المستوى العلمى نفسه. والقياس هنا ليس بالنسبة للعصر اللاحق للعهد العثمانى أى فى الحملة الفرنسية وعهد محمد على ولكن بالنسبة للعهد السابق للعصر العثمانى أى العصر المملوكى. ذلك أنه قد شاع خطأ بين بحاث التاريخ المصرى أن الحياة العلمية قد تدهورت فى العصر العثمانى حتى بدأت حركة بعث وأحياء على أساس الأخذ من العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر. والأمر بعكس ذلك تماما، فاذا كان القرن الثامن عشر قد أخرج مؤرخا مثل عبد الرحمن الجبرتى، فمن المؤكد أن النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يعرف على الإطلاق تأليفا مبتكراً فى التاريخ. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تغير اتجاه المجتمع فى حياته الفكرية، ففى الوقت الذى تدهور فيه الأزهر فى مطلع القرن التاسع عشر، لم تكن معالم الإتجاهات الجديدة الوافدة من الغرب قد تبلورت بعد.

ولا شك فى أن العصر السابق للعصر العثمانى كان عصر الأشراق الفكرى فى تاريخ المجتمع الإسلامى كله بعد سقوط بغداد فى يد المغول وخروج المسلمين من الأندلس. غير أن الحياه الفكرية فى مصر تعرضت لأزمة فى نهاية العصر المملوكى قبل دخول العثمانيين. فخلدت هذه الحركة إلى الركود وفقدت روح الإبداع والتجديد ثم جاء الفتح العثمانى فلم يولد لدى المثقفين ردود فعل انتاجية خصبة، وهكذا مالت الحياه الفكرية من دكود إلى ركود — لم

يضرب العثمانيون نطاقا غليظا على الفكر والتعليم فى مصر وأغلقوا المدارس ووقفوا سداً منيعاً فى وجه الابتكار والتأليف، بل إنهم على العكس من ذلك تركوا — كما رأينا — الحياة التعليمية فى مصر تسير فى مجراها الطبيعى فأبقوا المدارس وأوقافها وفتحوا مدارس جديدة لرفع المستوى العلمى والدينى - فالاحتلال العثمانى ليس وحده المسئول عن ضعف الحياة الفكرية وإنما النقلية والمحافظة وانكماش روح الابتكار والخلق هى السبب وراء هذا الانكماش الفكرى. وكان من مظاهر ضعف الحياة الفكرية انتشار الطرق الصوفية وزحف التصوف على الحياة العقلية بل والحياة الاجتماعية. ثم انحط التصوف من فلسفة إلى دروشة وكان بعض العلماء أنفسهم قد آمنوا بالأولياء بل أن بعضهم كان مرشحاً لهذه المرتبة، وهكذا انحط مستواهم الفكرى إلى مستوى العامة من الاعتماد على قراءة أدب الكرامات والطقوس الصوفية. ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية أيضاً فى العصر العثمانى التركيز بصفة مطلقة على علوم الدين دون علوم الدنيا. ولا شك فى أن للعثمانيين دخلا فى هذا الموقف، فقد عملوا على تشجيع هذا التيار تدعيما للاسلام والسنة خاصة. ونتج عن ذلك اهمال تام للعلوم العقلية أو الدنيوية ومنها التاريخ.

ونخلص من هذا كله إلى الحقائق التالية: —

أولا: إن التدهور العلمى فى العصر العثمانى كان من ناحية الكيف والمستوى لا ناحية الكم.

ثانياً: إن تدهور المستوى العلمى كان قد بدأ قبل نزول العثمانيين بمصر وأن العلم والمعاهد فى مصر فى العصر العثمانى كانت تؤدى وظيفة اجتماعية أكثر منها علمية أو ثقافية.

ثالثاً: إن تدهور علم التاريخ يرجع إلى تدهور المستوى العلمى العام وبالنسبة لعلوم الدنيا أو العلوم العقلية بالذات.

رابعاً: إن نقل الكتب التاريخية إلى استنبول بعيد الفتح العثمانى مباشرة إلى جانب تسرب هذه الكتب تدريجياً إلى أوربا وشمال أفريقية والسودان

ثم تلف مكتبات المدارس والجوامع إبان الفتن ونتيجة للاهمال ، كل ذلك كان من شأنه تدهور علم التاريخ فى ذلك العصر .

ومع هذا كله فالصورة التى قدمها الجبرتى عن موقف الدراسات التاريخية فى مصر مبالغ فيها إلى حد بعيد . فمن الواضح أنه لم تكن لدى الجبرتى صورة كاملة عن التأليف التاريخى السابق له وخصوصاً بالنسبة للقرنين العاشر والحادى عشر الهجريين أى قبل ١١٠٠ ﻫ وهى السنة التى يفتتح بها تاريخه .

* * *

ونستطيع أن نقسم مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى إلى ثلاثة أقسام:

أولا : مجموعة المؤرخين من العلماء الذين ظلوا أو حاولوا — سواء من ناحية فهمهم للتاريخ أو طريقة كتابته — متأثرين بمدرسة التاريخ الإسلامى ، يمثل هؤلاء فى القرن العاشر الهجرى كل من ابن أياس وأحمد شلبى عبد الغنى وفى القرن الحادى عشر كل من الإسحاقى وابن أبى السرور البكرى الصديق ، ويمثلهم فى القرن الثانى عشر عبد الرحمن الجبرتى وعبد الله الشرقاوى .

ثانياً : مدرسة التراجم — وهذه ليست جديدة على التاريخ المصرى السابق للعهد العثمانى ولكنها نشطت فى العصر العثمانى بشكل واضح — وفى القرن العاشر برز العينى وفى القرن الحادى عشر المحبى ثم الزبيدى والجبرتى فى القرن الثانى عشر .

ثالثاً : مدرسة الأجناد . وهذه تبتعد كثيراً عن مدرسة العلماء فى فهمها للتاريخ أو طريقة كتابها ، فهى تفتقر إلى أية خطة فى البحث والكتابة وأميل إلى طريقة الكتابة الشعبية وإن قدمت مادة تاريخية فريدة فى أهميتها ، ويمثلها ابن زنبل الرمال فى القرن العاشر ثم الدمرداش كتخدا عزبان ومصطفى ابن الحاج إبراهيم فى القرن الحادى عشر .

أولا : مدرسة المؤرخين التقليديين:

ابن أياس — الإسحاقى — أبو السرور البكرى — عبد الرحمن الجبرتى عبد الله الشرقاوى .

افتتح العصر العثمانى بمؤرخ كبير هو ابن أياس واختتم بمؤرخ كبير أيضاً هو الجبرتى — وابن أياس ينتمى فى نظر مؤرخى العصر المملوكى إلى العصر المملوكى أكثر من انتمائه إلى العصر العثمانى ولذلك وضعه الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى عداد مؤرخى القرن الخامس عشر على الرغم من أنه مات فى سنة ١٥٢٤ أى بعد الفتح العثمانى بثمانى سنوات . شاهد وأرخ للفتح العثمانى وللتنظيمات العثمانية الأولى فى مصر — ويمكن الرجوع فى دراسة ابن أياس إلى ما كتبه الدكتور زيادة (١)، وإلى ما كتبه المؤرخ البريطانى مارجوليوث (محاضرات فى المؤرخين العرب) .

وقد عالج ابن أياس الفتح العثمانى والتنظيمات العثمانية الأولى فى كتابه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) — ولم يكن ابن أياس من المؤيدين للسادة الجدد ولذلك تلمس فى حديثه عن الفتح العثمانى وسياسة العثمانيين فى مصر الكثير من التحقير والنقد اللاذع — غير أن أمانة ابن أياس العلمية ودقته فوق مستوى الشبهات ، فهو لا يزال المرجع الأول حول فترة الفتح العثمانى .

ولكن ابن أياس يقف عند بداية العصر العثمانى لذلك لا تصور كتاباته تحول المجتمع المصرى من العصر المملوكى إلى العصر العثمانى — والواقع أن المراجع فقيرة فى هذه الناحية بالذات وحول هذا الموضوع بصفة خاصة . وما لدينا بعد ذلك يدخل فى القرن الحادى عشر الهجرى .

وإذا كانت مراجع القرن الحادى عشر تتناول المجتمع المصرى وقد أصبح عثمانيا فإن أهميتها تأتى فى أنها تصور الموقف داخل المجتمع المصرى — العثمانى فى ذلك القرن ، فى أوله انهيار النظام العثمانى وتدهور الباشوية المصرية

(١) المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى .

لحساب الأوجاقات العثمانية ثم حوالى منتصفه فى تدهور الأوجاقات بدورها وبداية ظهور سيطرة البكوات المماليك .

* * *

وفى مقدمة المؤرخين الذين تناولوا القرن الحادى عشر اثنان هما الاسحاقى وابن أبى السرور البكرى الصديقى — والإسحاقى هو محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى ابن على الإسحاقى المنوفى الشافعى . ذكر المحبى فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأنه كان أديباً وشاعرا ، قرأ ببلده على شيوخ كثيرين وكان يتردد إلى القاهرة وحضر على عدد كبير من علمائها وتوفى فى عام ١٠٦٠ ه(١) .

وفى عام ١٠٣٣ ه فرغ من كتابه (لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول) ويعرف بتاريخ الإسحاقى .

وقد قسم الإسحاقى كتابه هذا إلى مقدمة عن فضائل مصر وذكرها فى كتاب الله وما ورد عنها من أحاديث سيد المرسلين ، ثم يبدأ فى تناوله تاريخ مصر منذ أيام الخلفاء الراشدين والدول التى مرت عليها ، ويشق طريقاً طويلا فى ذلك حتى ينحصر نصيب مصر فى العصر العثمانى فى الفصلين التاسع والعاشر .

وفى عرضه لهذا التاريخ المصرى فى العصر العثمانى يبدأ الاسحاقى أولا بالكلام عن كل سلطان من السلاطين العثمانيين فى عرض سريع ثم يفصل فى الكلام عن كل نائب أو والى من الذين حكموا فى العصر العثمانى فيذكر تاريخ تعيين وعزل كل باشا بدقة واضحة وأهم الأعمال التى تمت فى عهده حتى ينتهى عند سنة ١٠٣٢ ه آخر تولى إبراهيم باشا السلحدار .

ويتميز الإسحاقى بميزتين إلى جانب ما ذكرت : أولا اهتمامه الواضح بأسعار الحاجيات بين وقت وآخر ولهذا أهميته فى دراسة الأحوال الإقتصادية

(١) معجم سركيس ص ٤٣١ .

فى ذلك الوقت — ثانياً : رغم أنه من رجال العلم وبعيد نسبيا عن حوادث الدولة إلا أنه يعطى صورة واضحة عن تدهور الباشوية المصرية .

أما المؤرخ الآخر الذى يمثل القرن الحادى عشر والمعاصر للاسحاقى فهو السيد محمد بن السيد محمد أبى السرور البكرى الصديقى الشافعى المصرى المعروف بابن أبى السرور — والمعلومات التى لدينا عن هذا المؤرخ قليلة للغاية : فهو توفى فى سنة ١٠٨٧ ه . إنما يبدو أن ابن أبى السرور المؤرخ نشأ فى بيئة علمية من ناحية وواسعة النفوذ من ناحية أخرى وأن البيئة الخاصة التى عاش فيها ابن أبى السرور مكنته من أن يكون أكثر إلماما باحداث عصره من الإسحاقى . فقد ذكر الصديقى فى كتابه (النزهة الزهية) عند كلامه عن محمد باشا الذى تولى سنة ١٠٠٤ ه (وعمر المشهد الحسينى وزينه وتقيد بأمره وأتقنه ودرس فيه والدى بحضرته فخرج متعجبا من هذا الدرس وبهجته(١)) .

أما عن غنى الأسرة وجاهها فقد ذكر فى حديثه عن محمد باشا أيضا (وقد جعل لى والدى فى أيامه فرحا كان نادرة الزمان وفريداً فى الحسن والاتقان، أبذل فيه أموالا كثيرة وتحمل فيه بتجملات غزيرة ، أصرف فيه من النقد نحوا من خمسة آلاف دينار ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد عن هذا القدر ، ونزل فيه البكلر بك المذكور(٢) وذلك بمنزل والدى شيخ الإسلام أبى السرور المطل على بركة الرطل المعروف بالشادروان . . فكانت مدة الفرح أربعين يوما لم يذق فيها غالب أهل مصر نوما مع الوقدات الوافرة ببركة الرطل)(٣)

وربما نفهم من حديثه عن أبيه أنه كان شيخا للجامع الأزهر ، فشيخ الجامع الأزهر كان يلقب بشيخ الإسلام ، إلى جانب كونه شافعيا ، ومما يؤكد أن والده كان شيخا للأزهر ما ذكره المؤرخ فى حديثه عن خضر باشا ، قال

١ — ص ٣١ — النزهة الزهية .
٢ — أى الباشا العثمانى .
٣ — ص ٣١ النزهة الزهية .

[وكان يغلب عليه الشح الزايد وشرع فى قطع أرزاق العلماء من القمح، فطلع له والدى رحمه الله وكالمه فى ذلك وأنكاه بالكلام، فقال للوالد يامولانا هذا الغالب على الذين لهم القمح تجار وليس فيهم علماء ، فقال له الوالد يامولانا الوزير نحن نكتب لكم دفتراً بأسماء العلماء الذين لهم القمح فأجاب الوزير إلى ذلك وأمر المقاطعجى بالذهاب إلى منزل الوالد فى غير أيام الديوان للنظر فى هذه القضية ثم لم يزل الوالد رحمه الله يتلطف بالوزير إلى أن أجاز الإعطاء الخاص والعام(١) .]

ويتضح من هذا أن ابن أبى السرور نشأ فى بيئة علمية ذات ثراء وأن ذلك كان له الفضل فى أن المؤرخ كان على صلة بمجريات الأمور ولذلك جاءت كتاباته أكثر فهماً لتطور الأحداث السياسية من الاسحاق .

ولاتزال مؤلفات هذا المؤرخ كلها غير منشورة للآن على كثرتها (٢) .

وفى مقدمة هذه الكتب كتاب (عيون الأخبار ونزهة الأبصار) وهو التاريخ الكبير لهذا العالم إبتداء من الخليقة إلى دولة الجراكسة ، ورتبه على تسعة عشر مقصداً : فى شرف علم التاريخ واختلاف الناس فيه مقدار الزمان ، وفيمن سكن الأرض قبل آدم وقصة آدم وذكر ملوك الفرس واليونانيين والروم وفى سيرة ﷺ والخلفاء الراشدين بعده وسلاطين دولة بنى امية والعباسيين وبنى امية فى الأندلس والدولة الديلمية والفاطمية والسلجوقية والأيوبية والتركية . . . إلى آخر دولة الجراكسة . فالكتاب كما هو واضح لايقتصر على تاريخ مصر بل يشمل تاريخ الدول الإسلامية بشكل عام ، فهو بحث فى التاريخ الإسلامى العام .

أما بالنسبة لتاريخ مصر فى العصر العثمانى وهو ما يدخل فى مجال دراستنا هذه، فقد كتب ابن أبى السرور البكرى [النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية] وهو بحث مختصر فى ذكر خلفاء وملوك مصر ونوابهم

١ — ص ٣٤ . النزهة الزهية .

٢ — يقوم كاتب هذه السطور بنشر كتابه (النزهة الزهية) فى اطار مشروع لجنة نشر مخطوطات مصر العثمانية المشكلة من : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وكاتب هذه السطور .

منذ أقدم العصور إلى دولة السلطان مراد إبن السلطان أحمد فى سنة ١٠٤٢ ﻫ ثم يختم الكتاب بفصل عن [خصوصيات مصر وعجائبها ومنتزهاتها وما قيل فيها نظماً وشعراً .]

كذلك كتب هذا المؤرخ فيما يتعلق بمصر العثمانية بحثاً منفرداً عن حوادث مقتل إبراهيم باشا فى سنة ١٠١٢ ﻫ على يد أجناد الأوجاقات والمعارك التى دارت بعد ذلك بين الباشا الجديد محمد باشا الكرجى الخادم والاوجاقات حتى تصفية ثورة الأوجاقات وسمى بحثه هذا [تفريج الكربة فى دفع الطلبة] ولم نعثر على هذا البحث حتى الآن .

والمؤلف التاريخى الرابع للصديقى هو (المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية) ويبدو أنه كتب هذا الكتاب بعد عيون الأخبار وبتكليف من بعض (الفضلاء الائمة النبلاء) . وقد بدأ الكتاب بتاريخ الدولة العثمانية منذ أيام عثمان حتى إذا وصل فى الباب التاسع إلى السلطان سليم أخذ يذكر ولاة مصر الذين حكموا فى عهد كل سلطان ابتداء من سليم — ولما كانت النسخة الوحيدة الموجودة بدار الكتب تنتهى عند عام ١٠٢٩ ﻫ ولما كنا نعلم — حسبما ذكر هو فى مقدمة كتابه — أنه كتبه بعد تأليفه لعيون الأخبار الذى انتهى به إلى زمن السلطان مراد سنة ١٠٤٢ ﻫ، فلا بد أن للكتاب اجزاء أخرى مفقودة ليست فى متناول يدنا .

على أنه من الواضح من ناحية أخرى أن حديثه عن ولاة مصر فى هذا الكتاب الذى يتناول تاريخ الدولة العثمانية لا يختلف فى كثير أو قليل عما كتبه عن هؤلاء الولاة فى كتابه النزهة الزهية . وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن ابن أبى السرور قد كتب ثلاثة كتب فى التاريخ المصرى تعتبر مكملة لبعضها البعض :

أولا — عيون الأخبار ، فى التاريخ الإسلامى العام مع التركيز على تاريخ مصر حتى نهاية عهد المماليك .

ثانياً — المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية .

ثالثاً — النزهة الزهية فى تاريخ مصر تحت الحكم العثمانى .

وينحصر اهتمامنا فى هذا المجال بكتابه النزهة الزهية . أولا) — هناك النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية وهى ناقصة فى أولها — ولكن لدينا الآن نسختين كاملتين : نسخة مكتبة Rylands بمانشستر بانجلترا ونسخة المتحف البريطانى بلندن. وينحصر ما كتبه الصديق عن مصر العثمانية من ص ٦٢ إلى ص ١٠٩ (من نسخة دار الكتب) ثانياً) . يسير المؤرخ فى الجزء الخاص بمصر العثمانية على طريقة واحدة ، إذ يذكر تولية كل باشا وتاريخ عزله وما دار فى عصره من الأحداث — كما يعنى بذكر صفات الباشا وموقف المصريين منه — كل ذلك بتفصيل أكثر من الاسحاقى وبفهم أكثر لأمور الباشوية فهو مثلا يعنى بذكر أسماء الاوجاقات والوظائف العثمانية ثالثاً) على أن أهم ما يقدمه الكتاب أسماء قضاة مصر وتاريخ تعيينهم وعزلهم ولذلك يعتبر هذا المرجع من المصادر النادرة فى تاريخ القضاء فى مصر فى العصر العثمانى .

رابعاً — وأخيرا يتميز الكاتب بأن فصله الأخير يتناول فى حديث طويل النيل ومدن مصر ومتنزهاتها وعجائبها فهذا الفصل عبارة عن دراسة للخطط المصرية فى ذلك العصر .

ما هى أوجه الشبه والتباين بين الإسحاقى والصديق ؟

من الواضح أنهما ينتميان إلى مدرسة تاريخية واحدة. فكلاهما يبدأ تاريخه منذ أقدم العصور وليس فى هـذا بدع فهى الطريقة التى كان يسير عليها المؤرخون المصريون بصفة عامة مثل ابن أياس والجبرتى.

ثم أن طريقة كتابتهما واحدة ؛ الحوادث وفق عصر كل وال من الولاة العثمانيين . حقيقة أن أبى السرور يفصل أكثر ولكنه قياساً إلى الكتابات

التاريخية العربية يعتبر موجزاً ولذلك يمكن القول بأن كلا منهما يعطى الابعاد فقط للتطور السياسى فى العصر العثمانى .

وكلاهما يتحدث عن نفسه وبعض تجاربه من خلال كتاباته ، فكتابتهما تجمع صفة المذكرات إلى جانب التاريخ وهذه أيضاً ظاهرة تجمع بين ابن أياس والجبرتى .

وثمة ظاهرة مشتركة بين الرجلين وهى عنايتهما بذكر محاسن مصر وصفات أهلها وما ورد بشأنها فى القرآن والحديث إلى جانب ذكر محاسنها وعجائبها حتى ليخيل لدارسى التاريخ أن الشخصية المصرية كانت قد بدأت تتكون فى ذلك العصر .

غير أن من أهم ما يجمع بين هذين المؤرخين - مع غيرهما من المؤرخين اللاحقين والسابقين — نظرتهما إلى علم التاريخ . فالتاريخ فن وليس علم ؛ وهو فن تنبغى معرفته لما فيه من عنصر التشويق والعجائب والمستحدثات والفكاهات . على أن ذلك ليس الفائدة الأولى من التاريخ ، بل اكتساب تجربة الأولين فى سبيل فهم أفضل للحياة ومشاكلها — يقول الإسحاقى (فإنه لا يخفى على كل ذى ذوق سليم وفهم رائق مستقيم أن فن التاريخ من فاكهة المفاكهة بالغاية القصوى ونهاية الشأن فى الطلاوة والجدوى لأنه توقيع وقائع الزمان وتدوين الحوادث الدائر بها الدوران . . وألف مطالعته من رق طبعا وراق لبا ، يطلع الشاهد على ما كان من العجائب مخبا ويودع السمع أسماء كان لرؤية أهلها محبا) ويورد الإسحاقى بيتا فى هذا المعنى يقول :

فاتنى أن أرى الديار بعينى   فلعلى أرى الديار بسمعى

فإلى جانب الفكاهة بالغاية القصوى هناك التجربة الإنسانية التى يقدمها التاريخ .

---

(١) الاسحاقى — المقدمة .

ودفاع ابن أبى السرور فى هذا المجال أكثر عمقا ووضوحاً . قال فى المقصد الاول فى شرف علم التاريخ (أعلم أن شرف كل علم بقدر شرف موضوعه وفضيلته وهو أن يكون صحيحاً محيطا بما تحته من المعانى وموضوع علم التاريخ ذكر ما كان فى العالم فلذلك سار السبيل إلى معرفة ما يضر وما ينفع فيه) (٢) — ثم يقسم هذا المؤرخ علم الأخبار إلى أقسام ثلاثة :—

أولا) أخبار أنبياء الله ورسله وسنتهم وأخبار العلماء والحكماء وسيرهم . (وهذا عظيم المعنى وظاهر المنفعة فيما يصلح به الإنسان أمر معاده ودينه وسريرته فى إعتقاده وسيرته فى أمور الدين ثم ما يصلح أمر معاملاته ومعاشه الدنيوى) .

وثانياً) ويشمل أخبار الملوك وسياستهم وأسباب مبادىء الدول وسبب انقراضها وأخبار الوزراء والأمراء (وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر وقوع مثلها أبدا فى العالم .) وبوجهة النظر هذه أى أن التاريخ يعيد نفسه يستنتج ابن أبى السرور أن هذا القسم (غزير النفع جيد الفائدة فإن من عرفه واتقنه صار كأنه قد عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها وباشر الأحوال بنفسه فكبر عقله ويصير مجربا للأمور) . والقسم الثالث يشتمل على ذوى المروءات والأجداد وأهل الوفا ومحاسن الأخلاق وأرباب الشجاعة ويقصد بذلك السير . ثم يقول (وهذا القسم أيضاً عزيز النفع همته عالية وقريحته جيدة صافية فإن فى طباع من هو كذلك الارتياح لمكارم الأخلاق عند سماع أخبار الكرام ومحبة الاقتداء بذوى المرءات ليصير له نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر) .

ولنحاول أن نحدد المعالم الرئيسية فى هذا التفكير : لما كان التاريخ يعيد نفسه فإن من يقرأ التاريخ فإنه يعيش نفس التجربة كما أن فى قراءة التاريخ تهذيبا للخلق خصوصاً قراءة سير الصالحين من الحكام والقادة لذلك نرى

٢ — الصديق — النزهة ص٢ .

هذه النظرة بالذات تنعكس على موقف كل منهما من الأحداث فالفكرة السائدة فى تاريخ الاسحاقى والصديقى هى أن الحاكم العادل لا يشتط فى ضرائبه على الرعية ويعمل على استتباب الأمن .

* * *

رغم ما ذكرناه بالنسبة للاسحاقى والصديقى من أهمية كتاباتهما بالنسبة للعصر للعثمانى ولاسيما القرن الحادى عشر ، فإن الباحث يحس حين ينتقل من ابن أياس إلى الإسحاقى والصديقى أنه قد هبط هبوطا شديدا . فالنظرة النافذة المتفحصة والمثابرة على جمع الحوادث وترتيبها والافاضة فى الكتابة كل هذا مما نلمسه فى ابن أياس يكاد يختفى تماما فى القرن الحادى عشر وكأن التقاليد التى عرفتها صناعة التاريخ فى العصر المملوكى قد ضعفت ضعفاً شديداً ، وبدأت تتكون من جديد معالم مدرسة جديدة للتاريخ تتحسس خطاها مرة أخرى . غير أن هذه الارهاصات المتخلفة تخطو فجأة خطوة كبيرة فى القرن الثانى عشر عند عبد الرحمن الجبرتى الذى يختتم هذا الفريق من المؤرخين فى العصر العثمانى .

ويبدو الجبرتى وسط مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى عملاقا وأكثر من ذلك أن الكتب التاريخية الأخرى لهذا العصر تستمد أهميتها من وجود تاريخ الجبرتى نفسه فهى تعتبر مكملة لتاريخ الجبرتى ومن هذه الزاوية فقط تبدو لها بعض الأهمية — لذلك فلا محل فى الحقيقة لمقارنة الجبرتى بالمؤرخين المعاصرين له ، فالجبرتى يتميز عن كل هؤلاء بأنه يقدم صورة كاملة للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى ، والحق أن الجبرتى يعتبر أحد كبار المؤرخين فى العالم الإسلامى فى جميع أزمنته ، وبالتأكيد هو أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة .

ويواجه باحث التاريخ مشكلة عويصة فى محاولة تفسير ظهور مؤرخ مثل عبد الرحمن الجبرتى فى العصر الذى عاش فيه ، فالمعقول ألا يظهر مؤرخ

مثل الجبرتى على الاطلاق فى هذا العصر ، ذلك أن الجبرتى بالنظر إلى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، يبدو وكأنه خرج من لاشىء ولا يرجع إلى شىء — فالجبرتى ظاهرة من هذه الظواهر التاريخية المعزولة تماما عن عصرها فيما يتعلق بمدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى . ولم يمتد الجبرتى كظاهرة كذلك فى الفترة التى تلته . فحتى الآن لم يحاول أحد لا داخل مصر ولا فى خارجها فى العالم العربى أن يسير على خطى هذا المؤرخ . وهذه الظاهرة ، ظهور عبقرية منفردة ، ومعزولة عن الوسط الذى عاشت فيه تبدو غريبة حقا ليس فقط بالنسبة لتاريخ الحضارة الإسلامية ، بل بالنسبة لتاريخ البشرية .

ومما يؤكد أن الجبرتى لم يخرج من مدرسة تاريخية معينة أولا) ضعف مدرسة التاريخ المصرى بصفة عامة فى العصر العثمانى — هذا الضعف بدأ بعد ابن أياس ، والفترة الأولى من الحكم العثمانى خلت تماما من المؤرخين الذين كان فى قدرتهم أن يقدموا صورة لتحول المجتمع المصرى من مملوكى إلى عثمانى أى فى القرن العاشر ، والقرن الحادى عشر شاهد نهضة تاريخية أو حركة بعث فى حدود ضيقة ولا سيما فى التراجم ، ثم عاد الموقف إلى الركود زمن الجبرتى وقبله بقليل — وحتى حركة البعث والأحياء هذه كانت ضعيفة بالنسبة لمدرسة التاريخ المصرى التقليدية فى العصر المملوكى .

ثانياً) إلى جانب هذا الضعف العام فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى كانت عناية الجبرتى بالتاريخ الإسلامى والتاريخ المصرى فى العصور الوسطى ضعيفة أيضاً فمن المؤكد أن الجبرتى لم يطلع على كتابات المؤرخين فى هذه الفترة ، بل حتى لم يطلع على كتابات الكثير من المؤرخين فى العصر العثمانى نفسه ، فهو لم يذكر سوى أحمد شلبى عبد الغني الذى تناول تاريخ مصر من الفتح العثمانى حتى ١١٥٠ هـ ، واعتمد الجبرتى عليه فى الفترة السابقة للقرن الثانى عشر لأن الجبرتى بدأ تاريخه سنة ١١٠٠ هـ .

ما الذى يميز الجبرتى عن غيره من المؤرخين

أولا — دقة الجبرتى — للجبرتى دقة المؤرخ واستقصائه للحوادث وتحفظه فى ذكرها . فهو يقول فى مستهل حديثه عن عام ١٢٢٥ هـ (وانقضت السنه بحوادثها التى قصصت بعضها إذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار وغالبها من الأمور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف. وربما اخرت قيد حادثة حتى اثبتها ويحدث غيرها وانساها فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها أن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة) ويقول فى كلامه عن تراجم الامراء (ج ١ ص ٩٣) (ولم اخترع شيئا من تلقاء نفسى والله مطلع على أمرى وحدسى) .

ثانياً — الموضوعية — وموضوعية الجبرتى تبين من دقته وتبين كذلك من أنه يؤكد أنه يكتب للحقيقة والتاريخ — فهو يقول فى مستهل كتابه (ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للاخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى) ولكن هذه الموضوعية لا تجعل من الجبرتى تاريخا بارداً(١) — فكتابات الجبرتى تفيض بالحياة الدافئة ، والسبب فى ذلك أن الجبرتى ينفعل بالأحداث انفعالا عميقاً — وأول ما يسترعى النظر لمن يقرأ الجبرتى حب الرجل لبلده التى شاركها فى افراحها ومصائبها بكل قطرة فيه ، فهو يكتب عنها وكأنه يكتب بلحمه ودمه ، هذا أبرز ما فى كتاب الجبرتى من أوله لآخره(٢) — حقيقة أنه مما يجعل تاريخ الجبرتى صورة زاهية جداً ، أن تاريخ مصر وتاريخ مصر فى العصر العثمانى بسبب ظروفها المحلية غنى أكثر بكثير من تاريخ سوريا أو العراق فى هذه الحقبة ، على أن هذه الحقيقة لا يجب أن تقلل من قدرة الجبرتى كمؤرخ ، فالقارىء للجبرتى يحس دائماً بأنه يضع يده على نبض الحياة وبأنه يعيش فى الجو الحقيقى لمصر وللعصر — وقد ساعد على

(1) D. ayalon . Al-Jabarti. Bulletin of the school of Oriental Studies vol. XXIII Part II .

(2)I bid.

ذلك قدرة الجبرتى على الدخول مباشرة إلى قلب الموضوع ورسم صورة كاملة يضع ضربات من فرشته(١) .

ثالثاً : ما هى على وجه الدقة الأهمية التاريخية للجبرتى — أن الجبرتى قد كتب عن عصور ثلاث ، مصر العثمانية، والحملة الفرنسية ، وظهور محمد على. وكتاباته عن الحملة الفرنسية وظهور محمد على هامة للمؤرخ ولكن يشارك الجبرتى فى هذه الأهمية الكثير من المراجع الأجنبية ولا سيما بالنسبة للحملة الفرنسية ولعصر محمد على . ربما يؤخذ على الجبرتى كتاباته التى حمل فيها على محمد على دون فهم واع لطبيعة حركة محمد على وأعماله ولكن مع ذلك فأهمية الجبرتى إنما تعطى الصورة الثانية لعصر محمد على ، على اعتبار أن ما كتبه المؤرخون الآخرون يعطى الصورة الساطعة المشرقة من حكم محمد ، فالجبرتى يقدم الصورة الأخرى أو الوجه الآخر من هذه الصورة وهو الوجه القاتم من هذا الحكم وبذلك تكتمل على يد الجبرتى صورة هذا الحكم — ولكن الجبرتى يصور الأحوال فى مصر فى العصر العثمانى فى أدق وأحسن صورة تاريخية ، وبالذات مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى — ويبدو أن الفضل الأول فى ذلك يرجع إلى نشأة الجبرتى ، فالجبرتى نشأ فى بيت علم وثراء — تحس بهذا كله عند قراءة ترجمته لوالده فالشيخ حسن الجبرتى كان عالما كبيراً من علماء عصره وكان بيته مركز التقاء لهؤلاء العلماء ، ثم كان عالما ليس فقط فى علوم الدين بل فى علوم الدنيا ، ولا سيما الفلك والرياضيات — ومن ناحية أخرى كان الشيخ حسن رجل دنيا إلى كونه رجل دين ، فقد كان على صلة بالدوائر المملوكية الحاكمة والدوائر العثمانية وتولى هو نفسه حكم قلعة الطور فى وقت من الأوقات — هذه الحقائق توضح البيئة التى عاشها عبد الرحمن الجبرتى ، بيئة العلماء وبيئة المماليك ، ولهذه البيئة فى نظرى الفضل الأكبر فى تفسير كتابة الجبرتى ، فالجبرتى غنى جداً فى تصويره للمجتمع العلمى والمجتمع المملوكى فى هذا العصر بسبب ما ذكرناه — ومع أن الجبرتى به مادة لا بأس بها بالنسبة

(1) I bid.

للطوائف الأخرى كالتجار وأصحاب الحرف وأهل الذمة ، إلا أن تصويره يكاد يتركز سواء فى تاريخه أو فى تراجمه على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى(١) .

رابعاً — كيف سار الجبرتى فى تأليفه التاريخى — للجبرتى كتابان : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس وهو مطبوع الآن طبعة غير محققة — ويتناول أحداث الحملة الفرنسية . وكتاب آخر اشتهر به وهو عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — بدأه كما يبدأ المؤرخون بتاريخ مصر منذ أقدم العصور فى عملية سريعة حتى يدخل مفصلا فى العصر العثمانى ، وينتهى عند نهاية مشيخة محمد بك أبو الذهب . والجزء الثانى عن مصر فى عهد ابراهيم بك ومراد بك ، والجزء الثالث عن الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على ، والجزء الرابع والأخير عن محمد على حتى ١٨٢١م (١٢٣٦ ﻫ) ..

الجبرتى جمع مذكرات عن الأحداث والتراجم فى حياته إبان الحكم العثمانى وقبل نزول الفرنسيين ، ولكنه بدأ سنة ١٢٢٠ ﻫ — ١٢٢١ ﻫ يكتب تاريخاً — فى الجزء الأول يقول الجبرتى أن تاريخ جمع هذا الكتاب (وقتنا هذا) ، وقرب انتهاء الجزء الأول يشير إلى سنة ١٢٢٠ بقوله (وقتنا هذا) وفى أول الجزء الثانى يشير إلى وقتنا هذا بسنة ١٢٢٠ فيقول (هذا التاريخ الذى نمشى فيه لغاية سنة الف ومائتين وعشرين) وفى آخر الجزء الثالث يعود فيقول (وسنقيد إن شاء الله تعالى ما يتجدد بعدها من الحوادث من ابتداء سنة إحدى وعشرين التى نحن بها الآن أن امتد الأجل) .

إذا الجبرتى ابتداء من ١٢٢٠ — ١٢٢١ ﻫ يبدأ فى كتابة تاريخه كتابة منظمة مستمرة ، فماذا عن القرون السابقة لذلك ؟ يفهم من الجبرتى أنه اعتمد على أحمد شلبى عبد الغنى فى الفترة السابقة للفتح العثمانى حتى سنة ١١٠٠ ﻫ ثم بعد ذلك اعتمد على رواية المسنين ونقوش المقابر ودفاتر الكتبة من ١١٠٠ حتى ١١٧٠ ﻫ ثم يدعى الجبرتى أنه منذ ١١٧٠ بدأ يعتمد على ذاكرته . ولما كنا نستبعد ذلك لأن الجبرتى ولد سنة ١١٦٨ ﻫ فالأرجح أنه ظل يعتمد على

(1) I bid.

المصادر التي ذكرها حتى ١١٩٠ هـ والمؤكد أنه بدأ يدون ملاحظاته بشكل منتظم فى شكل مسودات حتى بدأ فى ١٢٢٠ هـ يعمل على جمعها وكتابتها فى شكل تاريخى.

خامساً — ما الذى دفع الجبرتى إلى تسجيل الحوادث على النحو الذى ذكره أولا، ثم ما الذى دفعه إلى جمعها فى ١٢٢٠ هـ وكتابتها وتدوين الحوادث فى شكل منتظم بعد ١٢٢٠ هـ.

هذا الموضوع يرتبط بقصة علاقته باستاذه الزبيدى، وبمؤرخ آخر فى الشام هو المرادى.

كيف ألف الجبرتى كتابه.

لقد جاء تفكير الجبرتى فى كتابة التاريخ أصلا من محمد خليل المرادى الحسيني مفتى دمشق (المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ) — فقد كان المرادى مشغولا بترجمة أعلام المائة الثانية عشر (سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر — أربعة أجزاء) ولما كانت هذه الدراسة تتطلب جهدا ضخما فقد تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره، لذلك أرسل المرادى فى سنة ١٢٠٠ هـ إلى الشيخ أبى الفيض محمد مرتضى الزبيدى (ترجمته فى الجبرتى الجزء الثانى من عجائب الآثار سنة ١٢٠٥ هـ) : وكان الزبيدى من علماء اليمن أصلا وينتسب إلى زبيد ولكنه أقام فى مصر فى أواخر حياته، وطلب المرادى من الزبيدى أن يساعده فى جمع هذه التراجم. ودأب الزبيدى بالفعل على جمع بعض التراجم. ولما كان الزبيدى أستاذ الجبرتى فقد دعاه فى جمادى الثانى من عام ١٢٠٣ هـ إلى الاشتراك معه فى هذا العمل — ومن ثم بدأ الجبرتى كتابته للتاريخ بجمعه لتراجم أعيان القرن الثانى عشر من المصريين — ويروى الجبرتى بنفسه قصة هذه التراجم فى ترجمته للشيخ محمد خليل المرادى (ج ٢ — سنة ١٢٠٦ هـ) فيقول (وكان هو السبب الأعظم الداعى لجمع هذا التاريخ على هذا النسق. فإنه كان راسل شيخنا السيد محمد مرتضى والتمس منه نحو ذلك، فأجابه لطلبته ووعده بأمنيته، فعند ذلك

تابعه بالمرسلات واتحفه بالصلات المترادفات، وشرع شيخنا المرحوم فى جمع المطلوب بمعونة الفقير ولم يذكر السبب لذلك، وجمع الحقير أيضا ما تيسر جمعه وذهبت به يوما وعنده بعض الشاميين فاطلعته عليه فسر بذلك كثيراً وطارحنى وطارحته فى نحو ذلك بمسمع من الجالس ... وتنوسى هذا الأمر شهورا) — وواضح من هذا أن الزبيدى لم يطلع الجبرتى على سر اهتمامه بهذه التراجم — وقد بلغ ما كتبه الزبيدى من التراجم نحو عشرة كراريس مرتبة على حروف الهجاء وسماها (المعجم المختص) ذكر فيه حسبما يروى الجبرتى سشيوخه ومن أخذ عنه أو جالسه من رفيق وصاحب وصالح أو من المشاهير، (وقد اذكر من احبنى فى الله واحببته أو استفدت منه شيئا أو انشدنى شيئا أو كاتبنى أو كاتبته أو بلوت منه معروفا وكرما) وقد وصف الجبرتى هذا المعجم المختص بقوله (إلا أن الكراريس المذكورة لم تكمل وترك فى الحروف بياضات كثيرة وغالب ما فيها افاقيون من أهل المغرب والروم والشام والحجاز والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات وأهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم ...».

وفى عام ١٢٠٥ هـ توفى الشيخ الزبيدى بالطاعون الذى نزل بمصر، فأخفت زوجته وأقاربها موته حتى نقلوا الأشياء النفيسة والمال والذخائر والأمتعة والكتب المكلفة ثم أشاعوا موته ..» ثم بيعت متروكاته بما فى ذلك «الكتب والدشتات» وقد اشتراها الجبرتى وفيها المعجم المختص الذى سبق ذكره.

وفى أواخر سنة ١٢٠٥ هـ وصل الجبرتى من الشيخ المرادى الحسيني مفتى دمشق كتابا وقرنه بهدية على يد السيد محمد التاجر القباقيبى «يستدعى تحصيل ما جمعه السيد (الزبيدى) من أوراقه وضم ما جمعه الفقير (الجبرتى) وما تيسر ضمه أيضا وارساله»، ويقول المرادى فى خطابه للجبرتى «وهذا الأمر ما حررنا بخصوصه لأحد من العلماء ولا من التجار واعتمدنا على الجناب بذلك اعتمادا على المحبة الموروثه واعلمنا أن جنابكم أولى بذلك من

كل أحد ولا سيما ما بلغنا من أن السيد ترجمكم(١) » .

ثم يقول «تجد جنابكم أن سعيكم هذا من أعظم المساعى عندنا لكون محبكم فى غاية الاشتياق إلى ذلك ، فنرجو إرسال ذلك أصلا واستكتابا » .

ولقد وصل هذا الخطاب قبل أن يكون الجبرتى قد ظفر بأوراق الشيخ الزبيدى من ورثته ولكنه أدرك من هذا الخطاب السبب الذى حدا بأستاذه الشيخ مرتضى إلى الاهتمام بترجمة أعلام المائة الماضية (الثانى عشر الهجرى) فلم يكن ذلك وليد قريحته ابتداء بل نزولا على رغبة القاضى المرادى . فلما ظفر الجبرتى بأوراق الزبيدى بدأ بدراسة التراجم التى كان قد أعدها الزبيدى. ويعتقد بعض الباحثين المعاصرين أن الجبرتى استرد التراجم التى كان قد كتبها بتكليف من الزبيدى(٢) . ولا يبدو هذا صحيحا :

أولا — ليس هناك ما يشير أصلا إلى أن الزبيدى احتفظ بتراجم الجبرتى وأغلب الظن أن الجبرتى احتفظ بها ليكملها و أنه حين أطلع أستاذه عليها لم يكن قد أتمها .

ثانيا — واضح أيضا من كلام الجبرتى عن « المعجم المختص » أنه كان يشمل تراجم رجال من أهل المغرب والحجاز والسودان ولا يشمل تراجم علماء وأعيان مصر ممن ينبغى للجبرتى أن يكون قد عنى بهم .

---

(١) يقصد ترجم للشيخ عبد الرحمن الجبرتى ولا يبدو من كلام الجبرتى من المعجم المختص أن هذا قد حدث .

(٢) يقول الأستاذ محمود الشرقاوى (دراسات فى تاريخ الجبرتى . الجزء الأول . ص ٢٥) « فلما مات هذا (الزبيدى) بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ هـ استولت زوجه على جميع ما خلفه بما فى ذلك كتبه وفيها ماقدمه له الجبرتى عن تاريخه ثم تزوجت أرملته واستطاع الجبرتى أن يشترى ماخلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه » ويستطرد الأستاذ الشرقاوى فيقول « وأرسل له مفتى دمشق بعد ذلك يستحثه على أن يتم كتابه فكان ذلك مشجعا جديدا له» . والصواب من ناحية الترتيب الزمنى أن مفتى دمشق أرسل إلى الجبرتى خطابه « وكانت أوراق السيد مختوما عليها » ثم لما « فتحت التركة بوصاية لزوجته » اشترى الجبرتى ما اشتراه من كتب ودشتات .

ثالثاً — ينتقد الجبرتى معالجة الزبيدى للتراجم فيقول « أنه أهمل من يستحق أن يترجم من العلماء والأعاظم وغيرهم » .

ثم يروى الجبرتى بعد ذلك كيف أن خطاب الشيخ المرادى قد شحذهمته للعودة إلى هذه الدراسة فيقول « فلما رأيت ذلك وعلمت سببه وتحققت رغبة الطالب لذلك ، جمعت ما كنت سودته وزودت فيه وهى تراجم فقط دون الأخبار والوقائع » . وفيما هو منشغل بهذا العمل الشاق إذ « ورد علينا نعى المترجم (المرادى) ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق فى زوايا الأهمال مدة طويلة . . . » ويفهم من ذلك :

أولا — أن الجبرتى قد توقف عن متابعة بحثه حين وصله نبأ وفاة الشيخ المرادى .

ثانيا — أن بحثه من الناحية التاريخية حتى ذلك الوقت لم يعد بعض تراجم.

ويبدو أن الجبرتى قد انقطع عن كتابة التاريخ بعد ١٢٠٦ هـ حتى عاد إليها فى شكل جديد وهو المذكرات اليومية منذ ١٢١٣ هـ عند نزول الفرنسيين بمصر . وقد كتب الجبرتى تاريخ مصر تحت الاحتلال الفرنسى من ١٢١٣ هـ — ١٢١٦ هـ فى كتابه المخطوط « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » فى شكل مذكرات يومية . ويشير الجبرتى إلى هذه الحقيقة فى مقدمة مظهر التقديس بقوله « ولقد كنت سطرت ماحصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا الوزير فى أوراق غير منظومة . وكثيرا ماكان يخطر ببالى وإن لم يكن ذلك من شأن أمثالى أن أجمع افتراقها وأكسبها بالترصيف اتساقها ليكون ذلك تاريخا مطلعا للبيب عن عجائب الأخبار وغرائب الآثار تذكرة بعدنا لكل جيل » . ولقد حدث أن صديقه الشيخ حسن العطار كانت تراوده نفس الفكره فكتب هو الآخر مذكرات عن تاريخ الاحتلال الفرنسى نثرا وشعراً ، وقد أضاف الجبرتى ما كتبه العطار إلى ما كتب هو

وأخرج منها كتابه مظهر التقديس (١) ، وعلى ذلك فمن المؤكد أن الجبرتى حتى عام ١٢١٦ هـ كان قد قام بعملين علميين هامين ، الأول عبارة عن تراجم متناثرة لأعيان القرن الثانى عشر الهجرى ، والثانى يشمل تاريخا كاملا فى شكل مذكرات يومية لأحداث مصر فى ظل الاحتلال ، وتبقى بعد ذلك العملية الأخيرة فى تاريخ الجبرتى وهى الربط بين البحثين ذلك الربط الذى تمخض عن كتابه المعروف عجائب الآثار فى التراجم والأخبار بأجزائه الأربعة . والجبرتى يشير إلى هذا الربط فى ترجمته للمرادى (١٢٠٦ هـ) بقوله « وفى أثناء ذلك ورد علينا نعى المترجم ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق فى زوايا الإهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع إلى أن حصل عندى باعث من نفسى على جمعها من الوقائع والحوادث والمتجددات على هذا النسق » . ومعنى هذا أن الجبرتى جمع من مصادر متعددة ما استطاع جمعه من وقائع القرن الثانى عشر الهجرى حتى عام ١٢١٢ هـ وأخرج من هذا كله الجزء الأول والجزء الثانى من كتابه الذى أطلق عليه عجائب الآثار ثم عدل فى مظهر التقديس وأخرج منه الجزء الثالث من عجائب الآثار مع إضافة حوادث ما بين سنة ١٢١٦ هـ وسنة ١٢٢٠ هـ ، وبعد أن حذف ما كتبه العطار إلا المنظوم منه فيشير إليه بقوله « كما قال صاحبنا الشيخ حسن العطار » وكان فى مظهر التقديس قد اكتفى بتراجم الأمراء المماليك فأضاف فى عجائب الآثار تراجم المشايخ أيضا . ثم أخذ يدون مذكراته للجزء الرابع الذى يشمل تاريخ مصر من سنة ١٢٢١ هـ حتى سنة ١٢٣٦ هـ ، ويدل ذلك على أن الجبرتى كان لديه متسع من الوقت لمراجعة وتنظيم وتنسيق الأجزاء الثلاثة الأولى من عجائب الآثار ولكنه مرض ثم مات أبان كتابته للجزء الرابع وهذا هو التفسير لما يردده المؤرخون من أن الجزء الأخير من

---

(١) ترجمة حسن العطار ، الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٨ وما بعدها .

عجائب الآثار يتسم بالاضطراب وعدم التناسق (١) .

ويبقى أن نجيب على هذا السؤال : متى ظهر هذا الباعث النفسى الذى أشار إليه الجبرتى وما هى العوامل التى أدت إلى ظهوره ؟ لقد بدأ الجبرتى فى كتابه عجائب الآثار على النحو السابق فى سنة ١٢٢٠ هـ . ومعنى هذا أن الباعث النفسى لابد أن يكون قد ظهر فى هذه السنة أو قبل ذلك بقليل . ويبدو أن الباعث النفسى كان رغبة الجبرتى فى أن يغير موقفه من الأحداث التى مرت بمصر منذ الغزو الفرنسى حتى سنة ١٢٢٠ هـ ، وأن العامل الأساسى الذى دفع إلى ذلك هو خيبة الأمل التى أصابت الجبرتى فى الحكم العثمانى عقب عودة العثمانيين إثر خروج الفرنسيين من مصر والتى جعلته يدرك أن الحكم العثمانى لم يكن خيرا من الحكم الفرنسى بل على العكس ربما يكون الحكم الفرنسى من بعض الوجوه خيرا من الحكم العثمانى ولذلك فالجبرتى يعيد موقفه من من الحكم الفرنسى وعودة العثمانيين ليصبح أكثر موضوعية وأقل عاطفية مما كان عليه فى مظهر التقديس :

وأقرب سبيل لفهم هذه الحقيقة المقارنة بين مظهر التقديس من ناحية والجزء الثالث من عجائب الآثار من ناحية أخرى وهو المستخرج المعدل من مظهر التقديس . والحقيقة أن هذا التعديل لا يعنى مجرد التنظيم والتبويب لإخراج جديد بل يحمل تغييراً موضوعياً فى تفكير الجبرتى السياسى .

---

(١) المعنيون بتاريخ مصر يأخذون من اضطراب الجزء الرابع من تاريخ الجبرتى دليلا على أن بعض أجزاءه قد حذفت عند الطبع والبعض الآخر يعتقد ان هذا الحذف يرجع إلى ما كتبه الجبرتى عن محمد على . والحقيقة أن الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار يشمل كل ما كان الجبرتى يود أن يقوله فى محمد على . وفى رأينا أن السبب الذي جعل البعض يعتقد أن فقرات قد حذفت من الجزء الرابع هو اضطراب المسودات التى كتبها الجبرتى وهو كبير السن ومريض ومات قبل أن يتمكن من تنسيقها . وفى البحث الذى قام به الأستاذ محمود الشرقاوى مقارنة بين النسخ المخطوطة للجبرتى قديمها وحديثها والنسخ المطبوعة تؤكد أن الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار لم يحذف منه شىء بالمرة .

إن الشواهد الداخلية والخارجية تجعلنا نحكم على مظهر التقديس بأنه التاريخ الرسمى للحملة الفرنسية فالكتاب مهدى إلى الوزير يوسف باشا إذ يقول الجبرتى فى آخره فى ذكر فضائل شهر رمضان المبارك « وأيضا أن شهر الصيام مقدمة شهر العيد الذى هو موسم السرور المديد وقد كان قدوم المشار إليه (الوزير يوسف ضيا باشا) نظر الله بعين الرعاية إليه مفتاح أبواب المسرات التى طال انغلاقها ومعيد بهجة مصر التى كسف بظلام الكفرة إشراقها ثم لسدته التى هى ملثم شفاه الإقبال ومحط أفاضل الرجال أهدى كاسد هذا التصنيف وخامل هذا الترصيف فإن لاحظه بعين القبول وذلك هو المتيقن والمأمول راج فى معالم الأدب سوقه وبطابع السعود شروقه » . وواضح من هذا أن الجبرتى كان يرحب برجوع العثمانيين ويعتبر هذا بداية لانبثاق عهد جديد زاهر ونهاية حكم فرنسى لم يكن راضيا عنه وفى مقدمة الكتاب ما يشير إلى هذه الحقيقة على نحو أوضح فهو من ناحية يلقى اللوم فى تمكن الفرنسيين من احتلال مصر على الأمراء المماليك الذين اتكلت عليهم الدولة لحماية الإقليم « فخربوا الثغور وأشادوا القصور » ، « فلما دهمت الفرنسيس ثغرها الخالى ووقعت منه على طلل بالى سهل عليهم الحال فاقتحموه ودخلوا من باب الإقليم بدون أن يفتحوه وتقاعدت العساكر المصرية على التسارع لاستنقاذ الثغر فعظم البلا وأخذ العدو يطوى بساط الأرض حتى إذا التقى الجمعان لم يسع القوم إلا الفرار فى الفلا » . إلى أن يقول « وأناخت دولة الكفار بكلكلها على هذا القطر العظيم وانتشروا فى أرجائه انتشار السم فى جسد السليم ... ولقد كادت تعم الرزية وتصير القضية أندلسية لولا عناية مزايدة الله بالنصر والتمكين وتلى عسكره المنصور مهما توجه لمعقل آية الفتح المبين وهو الملك الأعظم والسلطان الأفخر غياث المسلمين ، ملاذ المؤمنين ، مالك رقاب الأمم ، ملجأ العرب والعجم ، حافظ ناموس الشريعة الغراء بقوة سطوته باسط

بساط العدل والإحسان على كامل رعيته » (١) .

ولا شك أن الجبرتى اتصل بالوزير العثمانى وأن الوزير أحسن استقبال الكتاب لأنه بعد عودته إلى دار السلطنة عرضه هناك على السلطان سليم الذى أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٣ م) ، ومن المرجح أن الوزير وقد أكبر الجبرتى كعالم فلكى عهد إليه بتحرير التقاويم والتوقيت ورتب له جعلا على ذلك(٢) .

أولا) ورغم أن مظهر التقديس يمثل فى نظرنا التاريخ الرسمى للحملة الفرنسية إلا أنه يعكس بامانة كذلك موقف الجبرتى من هذه الأحداث ، وهو يتلخص فى الحملة الشديدة على الحكم الفرنسى واعتبار البكوات المماليك مسئولين عن نجاح الفرنسيين فى غزو مصر ثم التنبؤ بانبثاق عصر جديد من الاستقرار والرفاهية والعدالة بدخول العثمانيين، عودة الحكم العثمانى المباشر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الجبرتى فى مظهر التقديس بعيد عن موضوعية المؤرخ لا ينظر إلى الحوادث نظرة مجردة من العاطفة الدينية أو العاطفة الوطنية . ومع أنه فى عجائب الآثار لم يتخل قط عن هاتين العاطفتين إنما من الواضح أنهما لم يتحكما كلية فى كتاباته كما حدث فى مظهر التقديس. ففى مظهر التقديس كان الجبرتى يرى كل ما هو فرنسى كريها ويكفى أن يكون الحكم غير إسلامى ليحمل عليه الجبرتى أما فى عجائب الآثار فقد أخذ الجبرتى ينظر إلى الأحداث بعين الناقد الموضوعى فليس كل ما هو غير إسلامى سيء وليس كل حكم اسلامى طيباً فقد أتى الفرنسيس من الأعمال ماجعلهم أحياناً أفضل من العثمانيين وليس معنى هذا أن الجبرتى قد أخذ يدافع عن الحكم الفرنسى، فهو لا يزال الشيخ الأزهرى المتدين الذى يكره حكما غير إسلامى ويرى بحق أنه امتلأ بالقسوة والعنف ولكن الجبرتى فى عجائب الآثار يشيد بالفرنسيين إذا

(١) ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٢) خليل شيبوب ، عبد الرحمن الجبرتى ص ٨٩ .

استحقوا هذا . وخلاصة القول أن الجبرتى فى عجائب الآثار يحمل على حكم البكوات المماليك أولا وعلى الحكم الفرنسى ثانياً وعلى الحكم العثمانى الذى أعقب خروج الفرنسيين ثالثاً — ليس هذا فقط بل انه يعتبر أن الحكم العثمانى أشد وطأة رغم إسلاميته من حكم الفرنسيين وأن حكم الفرنسيين بدوره كان أشد وطأة من حكم البكوات المماليك ومن هذا كانت نظرة الجبرتى المتشائمة من تطور الأحداث فى مصر وما نلمسه من أن رأيه فى النهاية كان يعنى أن الأحوال فى مصر تسير من سىء إلى أسوأ .

ثانيا — يشيد الجبرتى بالفرنسيين فى عدة مواقف فى عجائب الآثار لم يشر إليها اطلاقاً فى مظهر التقديس مثال ذلك اعجابه بتنظيم الفرنسيين لأعمال الديوان وتفوقهم العلمى ونظامهم فى القضاء كما رآه فى محاكمة قاتل كليبر واعجابه بالكرنتيلة الفرنسية حين نزل الطاعون بمصر (شوال ١٢١٥). وهذا ما كتبه فى عجائب الآثار من وصفه للمعهد العلمى الفرنسى فى حارة الناصرية « وأفردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب . . حارة الناصرية وما بها من البيوت مثل بيت قاسم بك . . . ووضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها للطلبة ومن يريد المراجعة يراجعون فيها مرادهم ، فتجمعت الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبه موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها يحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار » ثم يقول « ولقد ذهبت إليهم

مراراً وأطلعونى على ذلك . . . وكتب من الكتب الإسلامية مترجمة بلغتهم . . . ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن ولهم تطلع زائد فى العلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ويدأبون فى الليل والنهار وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت» ثم يصف زيارته لتوت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم وأريجو المصور ورويا الحكيم (الكيمائى) وبعد وصفه لبعض التجارب الكيماوية والطبية يقول « ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا . » (١)

وكتب الجبرتى تعليقا على ما نسميه اليوم بحيثيات الحكم فى قضية قاتل كليبر فيقول « ذكروا فيها سورة الواقعة وكيفيتها وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الفرنساوية والتركية والعربية . . . وقد كنت قد أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه إلى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الوقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى أهوج . . وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضخمة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى افندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى السطور بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس

(١) عجائب الآثار ج ٣ ذكر حوادث شهر جمادى الثانية ١٢١٣.

وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد » .

ويلاحظ عند المقارنة بين مظهر التقديس وعجائب الآثار أن الجبرتى لا يشير إلى العثمانيين فى مظهر التقديس إلا بقوله « المسلمين » ، بينما يطلق عليهم فى عجائب الآثار « العسكر » أو العثمانية — وفى مظهر التقديس لا يذكر اسم قائد من القادة الفرنسيين إلا مصحوبا بوصف معين كقوله : برطلمين الكافر ، اللعين كفرلى ، والتعيس بونابرته ، والملعون ديبوى ، والملاعين الكفار ، ولكنه يحذف كل هذه الأوصاف فى عجائب الآثار .

والحقيقة أن المقارنة بين بعض النصوص الواردة فى الكتابين توضح مقدار التباين فى عاطفة الجبرتى وموقفه المعدل .

١ — حوادث محرم ١٢١٣ :

مظهر التقديس « وفى يوم الإثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا إلى فوة ونواحيها والبعض أقام ببلده فأمن » .

عجائب الآثار « وفى يوم الإثنين . . . والبعض طلب الأمان وأقام ببلده وهم العقلاء » .

٢ — صفر ١٢١٣ (عن دخول الفرنسيس القاهرة) :

مظهر التقديس : « ثم أن عساكرهم صارت تدخل إلى المدينة شيئا فشيئا حتى امتلأت منهم الطرقات . . ولكن لم يشوشوا على أحد ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها وهذه من أعظم المكايد لأجل احتلال عقول العامة وانهمكوا على أنواع المأكولات مثل الكلاب السعرانين ففجر السوقة . . . » .

عجائب الآثار : « ثم أن عساكرهم . . . ولكن لم يشوشوا على أحد ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ففجر السوقة . . . » .

٣ — ربيع الأول ١٢١٣ (احتفال الفرنسيس بعيد الجمهورية) .

مظهر التقديس : « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم وظهرت رغبتهم التى ابتكروها وخرجوا بها عن الطريق والملل جعلوا ذلك اليوم عيدا وتاريخا » .

عجائب الآثار : وذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخا » .

٤ — رمضان ١٢١٣ (عن أسرى المماليك)

مظهر التقديس : « فلما أصبح الأحد حضر المماليك المذكورة وهم ثمانية عشر مملوكا وأربعة من الكشاف وهم راكبون الحمير ومثقلون بأسلحتهم ومعهم نحو المائة من عسكر الفرنسيس فحزن المسلمون لذلك وانقبضت نفوسهم وصاروا بين مصدق ومكذب » .

عجائب الآثار : « فلما أصبح . . . ومعهم نحو المائة من عسكر الفرنسيس وأمامهم طبولهم وخرج بعض الناس تشاهدهم » .

٥ — ذى الحجة ١٢١٣ (حملة الشام)

مظهر التقديس : « ولم يأت خبر صحيح عن فرنسيس الشام وما جرى لهم أو عليهم إلا روايات لا يوثق بها ولا يصح المتواتر منها إلا تكرار هجوم الفرنسيس على حصون عكا ولم يتركوا من جعلهم ومكايدهم شيئا إلا فعلوه ولم ينالوا غرضا منها ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

عجائب الآثار : « ولم يأت خبر صحيح . . . ولم ينالوا غرضا منها » .

٦ — ذى الحجة ١٢١٣

مظهر التقديس : يورد القصيدة التى نظمها السيد على الصيرفى الرشيدى

في مدح أحمد باشا الجزار وهي تسعة وسبعون بيتا وثم يعلق بقوله « ثم هو قدمدح مخدومه أحمد باشا الجزار وهو بهذا المدح حقيق لكونه جاهد في الدين حق الجهاد فأرغم العدو وأسر الصديق ـ وفي الواجب والمتحتم لدى أن أمدح مولانا الوزير أبقاه الله شكراً على نعمه فتولى مصر التي أجراها الله على يديه واختاره لهذه المنقبة الشريفة الرفيعة الذكر في الدنيا والمضاعفة الثواب في الأرض لديه واستنقاذها من أسر أولئك الكفرة اللئام ورد شمل المسلمين بعد الصدع إلى الانتظام والالتئام » .

عجائب الآثار : يذكر عشرة أبيات من قصيدة الرشيدي دون تعليق .

٧ — صفر ١٢١٤ (معركة أبي قير البرية) :

مظهر التقديس : يذكر الجبرتي « العسكر السلطاني بجهة أبي قير » .

عجائب الآثار : يذكر الجبرتي « العسكر الوارد لجهة أبي قير » .

مظهر التقديس : « أشيع أن الفرنساوية انتصروا على المسلمين وأخذوا قلعة أبي قير » .

عجائب الآثار : « أشيع أن الفرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين على أبي قير وظهروا عليهم وقتلوا الكثير منهم ونهبوهم وملكوا قلعة أبي قير » .

٨ — ربيع الأول ١٢١٤

مظهر التقديس ـ « حضر كبير الفرنسيس ودخل إلى داره بالأزبكية وحضر صحبته عشرة أناس أسرى المسلمين (موقعة أبي قير) وشاع الخبر بحضوره فذهب كثير من الناس إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته فشاهدوا الأسرى وهم وقوف في وسط البركة ليراهم الناس فكفكفت الناس دموعهم وكظموا غيظهم وطووا قلوبهم على حرقة الناس ومرارة الأنف وأظهروا التجلد للعدو وقد طار من القلب الراحة والهدوء » .

عجائب الآثار : « حضر ساري عسكر الفرنساوي بونابرته ثم دخل إلى داره . . . ليراهم الناس ثم أنهم حرقوهم بعد حصة من النهار » .

ونستطيع من هذه المقارنة أن نخرج بحقيقة جوهرية هامة وهي أن الجبرتي في عجائب الآثار (ج ٣) قد غير ـ إلى حد كبير ـ موقفه من الاحتلال الفرنسي على أسس معينة :

أولا — أنه كان أكثر موضوعية في عجائب الآثار .

ثانيا — أن من مظاهر هذه الموضوعية انتفاء العاطفة الساذجة واختفاء أثرها في حكمه على الحوادث والناس .

ثالثاً — أن الجبرتي في مظهر التقديس كان كاتب مذكرات أكثر منه مؤرخاً بينما أتيحت له في عملية إعادة كتابة حوادث الاحتلال الفرنسي في الجزء الثالث من عجائب الآثار فرصة لفحص هذه الحوادث بعمق وإلقاء أضواء جديدة عليها حتى برزت صفته كمؤرخ أكثر منه كاتب مذكرات .

* * *

مدرسة التراجم :

عرضنا في المحاضرات السابقة الى المدارس التاريخية الثلاث في العصر العثماني : مدرسة اهتمت بالتاريخ العام واستطاعت ان تحتفظ ببعض التقاليد التي ورثها العصر العثماني في صناعة التاريخ . والمدرسة الثانية هي مدرسة التراجم وهذه ايضا امتداد لتقاليد عربية في كتابة التاريخ ، والمدرسة الثالثة هي مدرسة الأجناد التي اهتمت بصفة خاصة بحوادث الحروب والفتن بين الحاميات العثمانية التي ملأت هذا العصر .

وقد تكلمنا عن المدرسة الأولى ، مدرسة التاريخ العام ، وموضوعنا اليوم هو مدرسة التراجم . ومدرسة التراجم من اعرق واغنى المدارس التاريخية العربية ، والمعتقد أنه ليس هناك أمة عنيت بتدوين سير مشاهير رجالها كما فعلت الأمة العربية فمنذ بدأ ابن اسحق بوضع سيرة النبي والواقدي وابن سعد في تأليف الطبقات الى يومنا هذا ومدرسة التراجم هي الغالبة على كتابة

التاريخ العربى — وقد بلغ من ولع العرب بهذا الفرع بالذات من التاريخ تنوع التأليف به وتعدده، فمنها ما رتبت السير فيه على طبقات، فطبقة للصحابة وأخرى للتابعين وطبقة للقراء وأخرى للمحدثين وطبقة للشعراء وطبقة للأدباء وطبقة للنحاة وطبقة للأطباء، بحيث مثل أن تجد اهل فن أو علم أو فرقة من الفرق أو اتباع مذهب من مذاهب لم توضع طبقة أو طبقات فى تراجمهم.

ومن ابرز هذه التآليف تراجم الأعيان عامة دون الأقتصار على طبقة خاصة كوفيات الأعيان لابن خلكان مثلاً وفوات الوفيات للكتبى وتهذيب الأسماء للنووى وهلم جرا — بل ذهب بعض المؤرخين من العرب فى تراجمهم للأعيان بتصنيف مؤلفاتهم وفق القرون، فهذا كتاب فى اعيان القرن الثامن وذاك فى أعيان القرن التاسع — وهذا النوع الأخير اى الذى يتناول الأعيان بصفة عامة داخل اطار قرن واحد احدث عهدا من كتب الطبقات الأخرى. ويدور اقدم المشهور منها على سير اعيان القرن الثامن الهجرى وهو كتاب الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى، ويليه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى.

هذه المدرسة بالذات هى التى ظهر فيها نوع من البعث والأحياء فى العصر العثمانى. فالحقيقة أن كتابة التراجم فى العصر العثمانى لاتسير موازية مع حركة التاريخ العام — هذا أولا — ثم تتميز هذه المدرسة بعد ذلك بأمرين بارزين للغاية: أولا أنها لم تعرف الصفة الإقليمية أو المحلية التى عرفها التاريخ العام، فليست هناك تراجم لأعيان بلد عربى بذاته، وإنما هى كلها أو أغلبها، تراجم للعلماء العرب فى منطقة الشرق العربى، واقول فى الشرق العربى، لأنه قلما تناولت علماء المغرب. على أننا نلاحظ هذه الوحدة العربية عند تراجم العلماء فقط ولا نلاحظها مثلا فى تراجم رجال الدولة، والسبب فى ذلك الصلة العلمية الدينية داخل دائرة العلم فى الشرق العربى: القاهرة دمشق، حلب، مكة والمدينة، حضرموت وزبيد وغيرها.

ثانياً — الملاحظة الأخرى هى أن التفوق فى هذا الشأن كان من الشام؛ فمدرسة الشام، ومدرسة دمشق بالذات كانت لها الصدارة فى هذه التراجم، وهى التى اثرت فى غيرها من مدارس التراجم فى الشرق العربى، فالغزى صاحب الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، كان من غزة أصلا ورحلت أسرته إلى دمشق وتعلم هناك، وابن طولون الصالى الدمشقى صاحب كتاب ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر (القرن العاشر أيضاً) كان دمشقيا — وفى القرن الحادى عشر بدر الدين حسن الصفورى صاحب تراجم الأعيان من أبناء الزمان كان من بلاد الشام، ومصطفى فتح الله الحموى الأصل صاحب فوات الارتحال، ونتائج السفر فى أخبار أهل القرن الحادى عشر، والمحبى صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، حموى الأصل أيضاً — وحين نصل إلى القرن الثانى عشر الهجرى نجد المرادى من دمشق وهو صاحب الاثر الكبير الذى دفع الزبيدى والجبرتى إلى كتابة التراجم كما رأينا فى حديثنا عن عبد الرحمن الجبرتى.

على أن التأثير الشامى فى حركة التراجم لم تكن تعنى الاقتصار على تراجم بلاد الشام، فكل واحد من هؤلاء كان يكتب تراجم علماء العرب فى الشرق العربى كله.

وفى القرن العاشر، يبرز فى هذا المجال ثلاثة: الغزى، والعيدروسى وابن طولون — والغزى هو المشهور من هؤلاء الثلاثة، فكتابه يتناول أعيان المئة العاشرة كلها. وقد قام بنشره وتحقيقه جبرائيل سليمان جبور، ونشره فى ثلاثة اجزاء فى بيروت الأول فى عام ١٩٤٥ والثانى ١٩٤٩ والثالث فى عام ١٩٥٨ — والغزى هو نجم الدين محمد بن رضى الدين الغزى العامرى القرشى الشافعى، توفى فى سنة ١٠٦٠ هـ عن ثلاث وثمانين سنة. جمع فى كتابه هذا تراجم أعيان المائة العاشرة من أهل دمشق وحلب وبعضها من بلاد الشام ومن علماء القاهرة والحرمين الشريفين ومن أعيان الأتراك

العثمانيين — وقد وضع الغزى كتابه فى ثلاثة أجزاء اسماها الطبقات . يدور الأول منها على تراجم الأعيان المتوفين من أول سنة تسعمائه وواحدة إلى آخر سنة تسعمائة وثلاث وثلاثين أى الثلث الأول من القرن العاشر ، ويدور الجزء الثانى على المتوفين فى الثلث الثانى من القرن المذكور ، ثم يدور الجزء الثالث على المتوفين فى الثلث الثالث . وقد رتب المؤلف التراجم فى كل جزء على حروف المعجم ولم يستثن من أسماء المترجمين إلا المحمدين فقد وضعهم فى أول كل طبقة ثم بدأ بعدهم بالاسماء التى أولها حرف الألف حتى انتهى إلى الياء .

ومع ان الغزى أصلا من غزة ، إلا أن أسرته ارتحلت سابقاً إلى دمشق وولد هو هناك فى سنة ٩٧٧ هـ وتعلم على يد علماء دمشق فى القرن العاشر وجال فى أنحاء بلاد الشام وتأثر بمدارسها المختلفة ولا سيما بمدرسة حلب كما زار مكة والمدينة . ومع أنه ليس من الواضح لا فيما كتبه هو عن نفسه أو فيما كتبه المحبى عنه أنه زار مصر ، إلا أنه كان على صلة بعلماء مصر — فقد ذكر (وأجازنى من المصريين شيخنا شيخ الإسلام شمس الدين الرملى المصرى وشيخنا العارف بالله تعالى الأستاذ الأعظم زين العابدين البكرى) ومع أن الغزى يحوى تراجم من أنحاء العالم العربى ومن بلاد الروم أيضاً ، إلا أنه يلاحظ أنه ينفرد بالإفاضة فى تراجم علماء الروم أى الأتراك ، وهو أمر يدل على الصلة الوثيقة بين علماء الشام وعلماء الروم ، أكثر بكثير من اتصال علماء مصر بعلماء الروم . والحقيقة أنه يبدو أن الشام بسبب موقعها الجغرافى كانت حلقة الاتصال بين علماء الشرق العربى وعلماء الروم ـ كذلك يلاحظ عن تراجم علماء مصر أنها قليلة بالنسبة لعلماء البلاد العربية الأخرى ولا سيما الشام ـ كذلك يلاحظ حول تراجم الغزى، وهذا أمر يكاد ينفرد به أنه ترجم لبعض السيدات الصالحات المتنسكات من العرب . وعلى كل حال فيظل المحور الذى تدور حوله تراجم الغزى أهل العلم ولا سيما أهل الشريعة والإفتاء والقضاء .

وكتاب التراجم الآخر فى القرن العاشر ، هو النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، وهو مطبوع فى عام ١٩٣٤ م بمطبعة الفرات ببغداد ، صححه وضبطه محمد رشيد الصفار فى مجلد واحد . والمؤلف عربى الأصل من حضرموت وإن كانت أسرته قد ارتحلت إلى الهند وعاشت هناك ؛ وهو محيى الدين عبد القادر العيدروس الهندى . وقد ذكر فى حديثه عن عام ٩٧٨ هـ الكثير عن تربيته وأسرته وحياته ومؤلفاته ، ولا يفهم من حديثه أنه زار مصر وإن كان على صلة بعلماء الشرق العربى ولا سيما علماء اليمن ـ فقد ولد فى عام ٩٧٨ هـ . وتوفى حسبما يذكر المحبى فى سنة ١٠٣٨ هـ بمدينة أحمد أباد وعمره ستون سنة ـ وقد بدأ العيدروسى تراجمه بسنة ٩٠١ هـ حتى آخر سنة ١٠٠٠ هـ ـ وتحدث عن خطته فى مقدمة كتابه فقال (ذكرت فيه وفيات من ظفرت بتاريخ وفاته ، ممن مات فى هذا القرن ... من سائر العلماء والصلحاء والقضاة والأدباء والملوك والأعيان ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً أو رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ـ وضممت إلى ذلك ذكر بعض الحوادث والجاريات والحكايات العجيبة والملح الغريبة . ولا يعدم كل شخص نادرة جرت له من الأخبار وشعر نظمه من الأشعار على وجه الاختصار وما يحصل من الاعتبار . . . . هذا ولم استوعب كل ما وقع فى هذا القرن من الحوادث لعدم اطلاعى عليها ، وإنما ذكرت ما انتهى إليه علمى منها وربما أن الذى تركته يكون أكثر مما ذكرت ؛ ولكن إذا كانت الغايات لا تدرك فاليسير منها لا يترك ، وأرجو أن يكون هذا الكتاب كتاب حديث وفقه وتاريخ وأدب] . والواقع أن هذا الكلام يوضح طبيعة الكتاب بل طبيعة التأليف بشكل عام فى ذلك العصر ، فالمقصود بالتراجم بصفة عامة أن تكون مجموعة من الدراسات المتنوعة فى شتى نواحى المعرفة — وليس فى كلام المؤلف اختلاف عن بقية أصحاب التراجم فى هذا العصر أو ما سبقه أو ما لحقه وإنما الجديد الذى يقدمه هذا المؤلف : أولا أنه يؤكد الوحدة الثقافية التى أشرنا إليها .

وثانياً : عنايته الخاصة بتراجم أهل العلم فى الهند واعتبار هؤلاء جزءاً من التراث العربى الثقافى فى ذلك الوقت وإلى جانب عنايته بعلماء اليمن .

* * *

فإذا انتقلنا إلى القرن الحادى عشر وجدنا غزارة فى التأليف فى هذا النوع من الكتابة التاريخية . ولكن سنقصر حديثنا هنا على ثلاثة منها ، تراجم الصفورى ، ومصطفى فتح الله الحموى ، والمحبى ، والمحبى هو الوحيد المطبوع من هذه الكتب الثلاثة .

وكتاب [تراجم الأعيان من أبناء الزمان] لبدر الدين أبى الضياء حسن ابن محمد الصفورى المولود بقرية صفورية فى سنة ٩٦٣هـ والمتوفى فى سنة ١٠٢٤هـ بدمشق . ابتدأ فى تأليفه فى سنة ١٠٠٩ هـ بتشجيع من أستاذه محمد أمين السابق الجعفرى الذى بدأ يتتلمذ عليه الصفورى منذ ١٠٠٨هـ — وضمن كتابه تراجم من وجد من زمن ولادته إلى الشروع فى تأليفه من الأعيان والعلماء والفضلاء والأدباء والسلاطين والأمراء ورتبه على حروف المعجم وابتدأ بالأحمدية . ومع أن هذا الكتاب يقتصر فى أغلبه على علماء ورجالات الشام بصفة عامة — دون بقية أنحاء العالم العربى — إلا أنه من أنفع كتب التراجم فى القرن الحادى عشر . فقد كتب سجعاً ، كما يحوى مادة غنية جداً بالنسبة لمن ترجم لهم ، فهو لا يكتفى بذكر اسم المترجم وسنة وفاته وأهم مؤلفاته بل تلمس نوعاً من التحليل والنقد تكاد تخلو منه كتب التراجم المعاصرة .

فإذا انتقلت إلى المؤلف الآخر وهو [فوائد الارتحال ونتائج السفر فى أخبار أهل القرن الحادى عشر] ، للشيخ مصطفى فتح الله الحموى الأصل (المتوفى فى سنة ١١٢٣ هـ) تصل إلى أضخم عمل فى التراجم فى القرن الحادى عشر — فالكتاب حافل بتراجم مشايخ وعلماء القرن الحادى عشر الهجرى — وهو عبارة عن موسوعة جمعت من ذيل الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة للغزى ، ومجمع البحور فى علماء اليمن لابن أبى الرحال

اليمنى وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ، وعقد الجواهر والدرر فى الحضريين والعلويين لمحمد بن أبى بكر باعلوى — ولكن فتح الله لا يقتصر على عملية الجمع من هذه المراجع بل أضاف هو الكثير من أخبار وتراجم المصريين والشاميين بالذات — وهو فى ثلاثة أجزاء مرتبة على حروف المعجم وإن بدأ بالمحمديين على غرار المتأخرين من مؤلفى التراجم — ومع أن هذا الكتاب يقتضب فى تراجمه إلى حد بعيد ، إلا أنه يتميز عن غيره من أصحاب التراجم الشاميين بكثرة ما يورد من تراجم المصريين .

أما المحبى فهو صاحب كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، وهو محمد الأمين بن فضل الله بن محب الله المحبى . ومع أنه حموى الأصل إلا أنه دمشقى المولد والدار ، حنفى المذهب . ولد بدمشق عام ١٠١١ هـ وتوفى فى عام ١١١١هـ . وهو الكتاب المطبوع من هذه المجموعة ، فقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٤ هـ فى أربعة أجزاء ، رغم أنه أقل من ناحية الأهمية العلمية والتاريخية من المرجعين السابقين . حقيقة أنه تناول المائة الحادية عشر على نفس المستوى العربى العام ، اليمن والبحرين والحجاز والشام ومصر والروم ، إلا أنه يميل إلى الصياغة الأدبية ولا يقدم فى الحقيقة مادة تاريخية بالمعنى المفهوم .

* * *

فإذا وصلنا إلى القرن الثانى عشر نجد أن من أبرز التراجم فى هذا القرن هو سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، ويسمى أيضاً أخبار الأعصار فى أخبار الانصار ، ويبدو أن هذه التسمية هى التى اختارها أولا المرادى — وقد ترجم الجبرتى للمرادى فى حوادث عام ١٢٠٦ هـ — فذكر أنه (لما توفى والده تنصب مكانه مفتى الحنيفة بالديار الشامية ونقيب الأشراف بإجماع الخاص والعام وما فيها أحسن سير وزين بمآثره العلوم النقلية) ثم يقول (وكان رحمه الله مغرما بصيد الشوارد وقيد الأوابد واستعلام الأخبار وجمع الآثار وتراجم العصريين على طريقة المؤرخين ، وراسل فضلاء البلدان البعيدة

ووصلهم بالهدايا والرغائب العديدة والتمس من كل جمع تراجم أهل بلاده وأخبار أعيان أهل القرن الثانى عشر بحسب وسع همته واجتهاده) ثم أخذ الجبرتى يروى قصة علاقته بالزبيدى والظروف الأولى التى أدت إلى كتابة الجبرتى نفسه للتاريخ على نحو ما ذكرنا فى المحاضرات السابقة وهى فى إيجاز :

أولا : مرحلة جمع الجبرتى للتراجم عن المصريين بتكليف من أستاذه الزبيدى ، بناء على طلب المرادى دون علم الجبرتى بصلة الزبيدى بالمرادى .

ثانياً : لما مات الزبيدى فى ١٢٠٥ ، راسل المرادى الجبرتى وطلب إليه أن يكمل تراجمه التى كان قد بدأها مع الزبيدى ، وعاد الجبرتى إلى التراجم مرة أخرى ، حتى توفى المرادى نفسه فى سنة ١٢٠٦ — ويقول الجبرتى (وما أدرى ما فعل الدهر بتاريخه المذكور) — وهذا التاريخ هو الذى طبع فى الآستانة عام ١٢٩١هـ الأجزاء الأول والثانى والثالث وطبع الجزء الرابع ببولاق سنة ١٣٠١هـ .

ولقد كانت حركة كتابة التراجم قد انتقلت فى العصر العثمانى إلى بلاد الشام بصفة أساسية مع اتخاذها شكل المجال العربى العام ، إلا أنها عادت مرة أخرى بالتأكيد إلى مصر على يد الجبرتى . ولكنها عادت بتوجيه وتأكيد شامى كما رأينا فى الحديث عن الظروف التى أدت إلى كتابة الجبرتى للتاريخ ، والجبرتى قد ذكر قصة هذا التاريخ فى ترجمته للمرادى ، وقد قال ما نصه (وكان هو السبب الأعظم الداعى لجمع هذا التاريخ على هذا النسق) .

وتمثل التراجم جانبا كبيرا من تاريخ الجبرتى . ورغم أنه لا ينفرد بكتابتها بل يذكر حوادث كل سنة إلى جانبها — إلا أنها تحتل مكانة كبيرة من تاريخه ، فقد بدأ الجبرتى بها وهى تمثل الجزء الأكبر من كتابه ولا سيما فى الجزئين الأول والثانى ـ وقد اطلق الجبرتى على كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، فقدم التراجم على الأخبار وهو أمر له دلالته فى أهمية تراجم الجبرتى .

ويسير الجبرتى فى طريقته فى الترجمة ، على نحو محدد ، فيترجم للمشايخ والعلماء ثم للأمراء وغيرهم من طبقات الناس . وقد ترجم قليلا لأهل الذمة ، وترجم لسيدة واحدة هى نفيسه المرادية زوجة مراد بك ـ ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تراجم الجبرتى تحوى الكثير من المعلومات المتعلقة بالحوادث من التى لم ترد فى سياق الأخبار نفسها . ولذلك فمن الخطأ أن يقتصر البعض على الأخبار دون الإستعانة بالتراجم فى فهم هذه الأخبار نفسها ، بل على العكس تبدو التراجم احيانا جمعا للحوادث ومرتبة ومنظمة لها وخصوصا بالنسبة لتراجم الأمراء أمثال على بك الكبير أو محمد بك أبو الذهب أو مراد أو إبراهيم — غير أن من أهم ما فى تراجم الجبرتى التعرف على حياة الجبرتى نفسه . ففى هذه التراجم دراسة للعلماء الذين تتلمذ عليهم الجبرتى أو زاملهم أو درس لهم ، وفيها تصوير شامل للبيئة العلمية التى عاش فيها .

ولئن كانت تراجم الجبرتى تتميز عن جميع التراجم السابقة بما تشمله من تحليل ونقد — لا وضع الحقائق المجردة فى اضيق الحدود كما فعل السابقون — بحيث جاءت عاكسة للحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية معا ، فإن ما يؤخذ على هذه التراجم انها لم تكن بنفس المستوى من الشمول العربى الذى نلحظه فى تراجم المدرسة الشامية .

* * *

مدرسة الأجناد

هناك فريق من المؤرخين فى العصر العثمانى يمثلون لوحدهم مدرسة خاصة إذا شئت — لم تكن صناعتهم كتابة التاريخ أو الأشتغال بالعلم ، بل كان أغلبهم من الأجناد مارسوا كتابة التاريخ كنوع من الهواية . وهذه المجموعة من كتاب التاريخ العثمانى كانت موضع تجاهل وعدم اهتمام من جانب المعاصرين لهم فى العصر العثمانى بل من جانب المؤرخين المحدثين اليوم — ودليلنا على موقف المعاصرين لهم ما كتبه الجبرتى فى مقدمة كتابه عجائب الآثار ، أنه حين شرع فى كتابة كتابه هذا [وأردت أن أوصله بشىء قبله فلم

أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مخالفة التهذيب والترتيب وقد اعتراها النقص فى مواضع من خلال بعض الوقائع]. ثم نجد دليلنا على تجاهل المؤرخين المحدثين لهم فى أن هذه المجموعة من المؤرخين لم تنشر كتبهم ولم تحقق بل ولم تستخدم فى البحث العلمى فى تاريخ هذه الفترة حتى اليوم. ولقد نتج عن ذلك أن معلوماتنا عن هذه المجموعة من المؤرخين ضئيلة جداً ، لذلك يستحيل التعرف عليهم إلا فى حدود ضيقة للغاية.

أول هؤلاء أحمد ابن زنبل المحلى الرمال ، ولا تتحدث المراجع المعروفة بشىء عنه سوى أنه كان موظفا بديوان الجيش العثمانى فى وقت ما وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التى أنهت دولة المماليك بمصر والشام وأنه حضر جنازة طومان باى آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثمانى.

ولابن زنبل كتاب (تاريخ أخذ مصر من الجراكسة) وهو سجل واف لحوادث الفتح العثمانى من يوم خروج السلطان قانصوه الغورى من القاهرة لملاقاة العثمانيين بشمال الشام إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول إلى استنبول. ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كتبت نسخة أو نسخ شعبية ما برحت تسلية المقاهى بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادى(١) وترجمه السهيلى إلى التركية منذ القرن السابع عشر ضمن كتاب له اسمه (الدرة اليتيمة فى تاريخ مصر القديمة) واعتمد عليه مارسل Marcel أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر ، فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ مصر الإسلامية ولا يزال مرجعا من الدرجة الأولى حتى الآن. ويقول الدكتور محمد مصطفى زيادة [وربما عنى به المعنيون بالتاريخ المصرى قريبا ، لتكون منه نسخة منشورة نشرا نهائيا مقارنا ، يطمئن إليه المؤرخون اطمئنانا علميا](٢) والمعروف كذلك من أخبار ابن زمبل أنه بقى حيا يرزق من

(١) زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر ص٧٥ ومابعدها.

(٢) زيادة : ص٧٥ ومابعدها.

وظيفة بديوان الجيش العثمانى سنة ١٥٤٤ م ، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبى قير الحالية قرب الاسكندرية وأنه توفى بعد سنة ١٥٥٢ م.

هذا بالنسبة للقرن العاشر ، ولكن القرن الحادى عشر يخلو - فيما يبدو - من هذا النوع من المؤرخين ، أو ربما كان هناك عدد منهم لم يصل إلينا خبرهم بسبب ضياع كتبهم إبان الحروب الأهلية أو الغزو الفرنسى.

وفى القرن الثانى عشر يظهر عدد منهم - ولعل السبب فى ذلك امتلاء هذا القرن بحوادث الصراع بين الأوجاقات العثمانية والبيوت المملوكية - أهم هؤلاء على الشاذلى الذى عنى بتاريخ ثورة افرنج أحمد (وهى مخطوطة صغيرة بدار الكتب المصرية) ، وأحمد الدمرداش كتخدا عزبان صاحب كتاب (الدرة المصانة فى أخبار الكنانة) (وهى مخطوطة ضخمة من جزئين بالمتحف البريطانى بلندن) ، وابراهيم مصطفى صاحب كتاب (تاريخ وقائع مصر القاهرة) (مخطوطة من جزءين بالمكتبة التيمورية بدار الكتب).

وليست لدينا ترجمة لأحمد الدمرداش كتخدا عزبان ، فلم يشر إليه الجبرتى فى تراجمه ، كما لم نعثر فى دفاتر دار المحفوظات بالقلعة على شىء يشير إليه. إنما من الواضح من لقبه أنه كان يتولى منصب الكتخدائية باوجاق عزبان ، وهو يأتى بعد منصب الأغا قائد الأوجاق ، كما أن أوجاق عزبان يأتى فى المرتبة التالية لأوجاق الانكشارية — ومن ناحية أخرى يشير المؤلف أحيانا فى كتابه إلى نفسه عند ذكر بعض الحوادث بقوله (وكان الحقير حاضرا).

والكتاب يتناول تاريخ مصر السياسى منذ بداية القرن الثانى عشر الهجرى (من سنة ١٠٩٩ هـ على وجه التحديد) حتى سنة ١١٦٩ هـ. وقد ذكر المؤلف فى آخره الجملة التالية [هذا وقد نهيت تاريخى على ذلك وأن أعطانى الله عمرا زدته مما أراه عيانا] ولما كنا نعلم أنه ليس هناك تاريخ بعد ذلك لهذا المؤلف فالمرجح أن يكون المؤلف قد توفى بعد عام ١١٦٩ هـ بقليل.

غير أنه من الواضح أن المؤلف كان يكتب مذكرات لحوادث عاشها وليست تحقيقاً تاريخياً : —

ما هى أهم ميزات هذا المؤلف ؟ أولا)- تبدو أهمية الرجل فى الفترة التي عاشها ، وهى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، وهى فترة غنية جدا فى تاريخ مصر العثمانية وربما تكون أغنى فترة من الناحية السياسية لأنها الفترة التي شاهدت الحروب بين الأوجاقات العثمانية وانهيار النظام الذى أسسه سليم وسليمان انهيارا تاما والذى انتهى بسيطرة البكوات المماليك — ثم يضاف إلى ذلك أن الجبرتى بدأ يكتب بدقة وافاضة منذ ١١٩٠ هـ ، لذلك تعتبر كتابات الدمرداش عزبان مكملة لكتابات الجبرتى .

ثانيا — لما كان الدمرداش عزبان ، ليس فقط معاصرا لهذه الأحداث ، بل اشترك فيها فإن كتاباته تتميز بالتأكيد عن مدرسة العلماء والمشايخ بفهمها العميق وبالافاضة الواسعة للانقسامات والأحزاب العثمانية والمملوكية وهذا كله لا يمثل تاريخا عسكريا كما قد يتبادر إلى الذهن بل تاريخا سياسيا لأنه صراع حول السلطة فالنظام العثمانى كان يقوم على قاعدة عسكرية . وبالكتاب ثروة ضخمة جداً من المصطلحات العسكرية والإدارية والمالية الخاصة بالعصر العثمانى وهى أمور تفتقر إليها كتب المشايخ والعلماء من المؤرخين .

ثالثا — لا يجب أن يفهم من ذلك أن الكتاب هام فقط فى فهم التطور السياسى أو التاريخ المحلى السياسى فى مصر العثمانية ، فالواقع أن الكتاب يصور بدقة البناء العثمانى فى مصر ، وتركيب المجتمع المصرى فى العصر العثمانى — خذ مثلا التركيب الطائفى للمجتمع من خلال كلامه عن ابراهيم بك أبو شنب الذى كان قائدا على حملة عسكرية طلبها السلطان العثمانى فى ١١٠٥ هـ قال (اتجهزت الألفين ، أوكب ابراهيم أبو شنب بالسدادره وأصحاب الإدراك إلى بولاق ، نزل فى قصر الحلى وشيخ الشحاتين فى ركابه مع طايفته وهم يصرخوا ويقولوا الله يردك علينا يابيك سالم لأنك أبو الفقرا ، لأنه كان

يعرفهم بالواحد ، إذا أعطى واحد منهم نصف فضة وجرى طلع الرميلة من المظفر وقف قدامه يقول له أخذت نصيبك فى الصليبية) ص ١٧ — ١٨ ثم يذكر عند عودة إبراهيم بك فى نفس السنة عن هذه التجريدة (وإذا بإبراهيم بيك شنب طلع بندر اسكندرية ، أرسل ساعى لكتخداه ، نزل الحلى بالمعازق النحاس والطباخين يعملوا له سماط ، أخذت الشحاتين خبر جمعوا من بعضهم أربعة وعشرين ألف نصف فضة اشتروا بهم حصان معبا مزركش وسرج مغرق ورشمه ورخت وغداره ودبوس وركاب مطلى ، فلما طلع الحلى ونزل على السماط قدموا له تلك الحصان المرخت فقبله منهم وقطع لهم وصلا بثلاثين ألف فضة ، بات تلك الليلة وعند الصباح ركب حصان الشحاتين وطلع عند الباشا خلع عليه قفطان السلامة) ص ١٨ — ١٩ .

مثل هذا النص يصور التركيب الطائفى للمجتمع ، وهو تركيب ينتظم فيه جميع أفراد المجتمع على اختلاف حرفهم وأعمالهم ومذاهبهم فيضع كل أصحاب حرفة مهما بلغت من الانحطاط فى مكانها من المجتمع وتعترف بها الدولة وتحترمها وتتعامل معها على هذا الأساس .

رابعاً — والكتاب كذلك مجال للدراسة الإقتصادية ، فهو يذكر دائما أسعار الحاجات فى ارتفاعها وانخفاضها ، كما يقدم صورة زاهية جدا عن الحياة الاجتماعية : العادات والتقاليد الوطنية والدينية .

أما كتاب ابراهيم مصطفى (تاريخ وقايع مصر القاهرة) فهو يتناول نفس الفترة الزمنية التى يتناولها كتاب عزبان أى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى وبنفس الأسلوب فى المعالجة وأن كان واضحا من المقارنة بين الكتابين أن عزبان كان أكثر اتصالا بالأحداث وأكثر عناية بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية من حياة المجتمع .

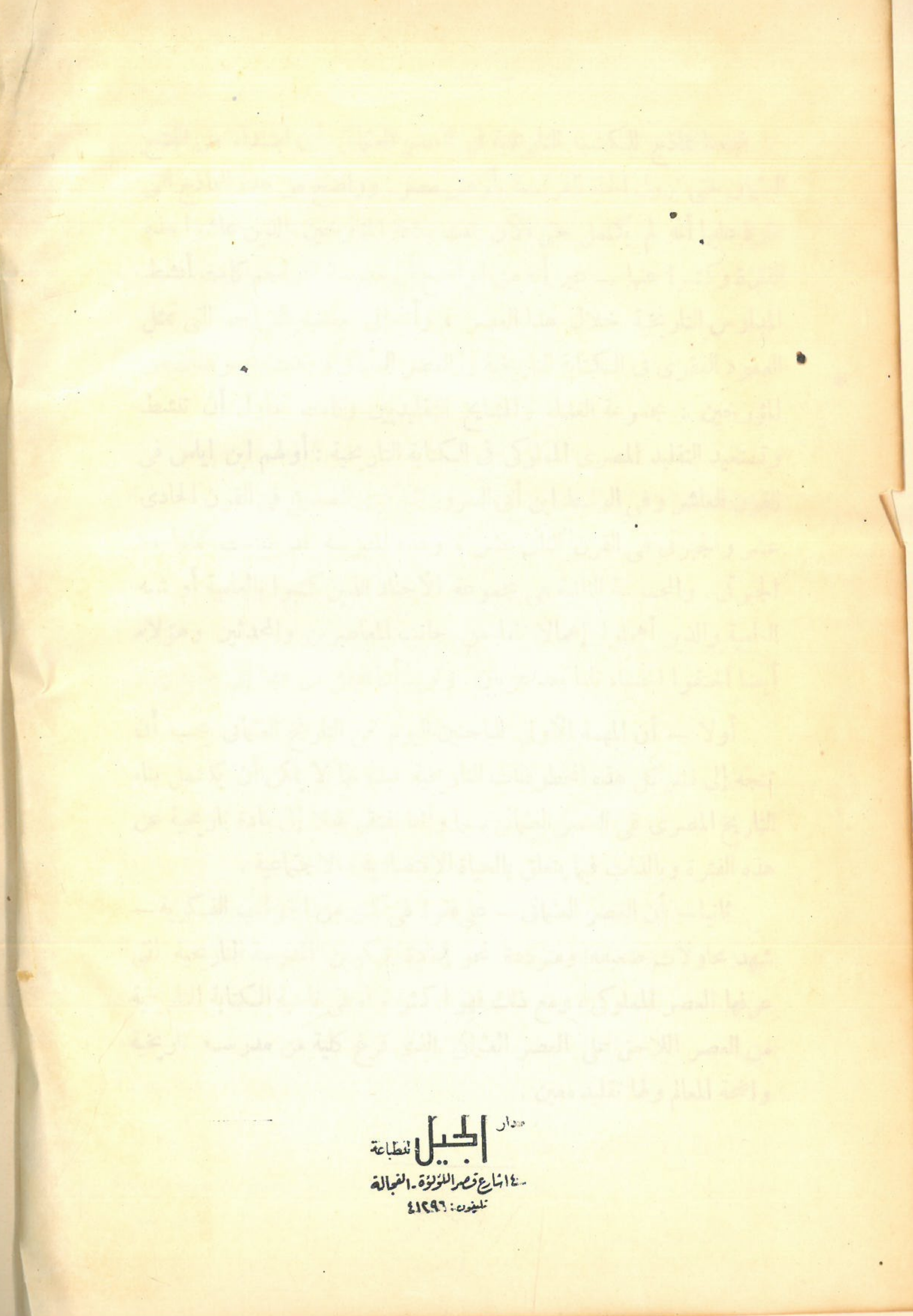
ومن المؤكد أن فى كل من عزبان وابراهيم مصطفى مجال واسع للدراسة اللغوية فالكتابان مكتوبان بلغة أقرب للعامية منها الفصحى .

* * *

قدمنا نماذج للكتب التاريخية فى العصر العثمانى أى ابتداء من الفتح العثمانى حتى نزول الحملة الفرنسية بأرض مصر . وواضح من هذه النماذج التى عثرنا عليها أنه لم يكتمل حتى الآن ثبت بكافة المؤرخين الذين عاشوا هذه الفترة وكتبوا عنها — غير أنه من الواضح أن مدرسة التراجم كانت أنشط المدارس التاريخية خلال هذا العصر ، وأنه إلى جانب التراجم التى تمثل العمود الفقرى فى الكتابة التاريخية فى العصر العثمانى وجدت مجموعتان من المؤرخين : مجموعة العلماء والمشايخ التقليديين وكانت تحاول أن تنشط وتستعيد التقليد المصرى المملوكى فى الكتابة التاريخية : أولهم ابن اياس فى القرن العاشر وفى الوسط ابن أبى السرور البكرى الصديق فى القرن الحادى عشر والجبرتى فى القرن الثانى عشر ، وهذه المدرسة قد ضاعت تماما بعد الجبرتى . والمجموعة الثانية هى مجموعة الأجناد الذين كتبوا بالعامية أو شبه العامية والذين أهملوا إهمالا تاما من جانب المعاصرين والمحدثين وهؤلاء أيضا اختفوا اختفاء تاما بعد عزبان . ونريد أن نصل من هذا إلى حقيقتين :

أولا — أن المهمة الأولى للباحثين اليوم فى التاريخ العثمانى يجب أن تتجه إلى نشر كل هذه المخطوطات التاريخية فبدونها لا يمكن أن يكتمل بناء التاريخ المصرى فى العصر العثمانى سيما وأننا نفتقر فعلا إلى مادة تاريخية عن هذه الفترة وبالذات فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية .

ثانيا — أن العصر العثمانى — على فقرة فى كثير من الجوانب الفكرية — شهد محاولات ضعيفة ومترددة نحو إعادة تكوين المدرسة التاريخية التى عرفها العصر المملوكى ، ومع ذلك فهو أكثر ثراء فى ناحية الكتابة التاريخية من العصر اللاحق على العصر العثمانى الذى فرغ كلية من مدرسة تاريخية واضحة المعالم ولها تقليد معين .


دار الجيل للطباعة
١٤٠ شارع قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون : ٤١٢٩٦٠